

محمد يوسف عدس

الدولة العثمانية في أوروبا

من سمات العبقرية في الحضارة الإسلامية

تقديم

أ.د / عادل حسن غنيم

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدولة العثمانية
في أوروبا

من سمات العبقرية في الحضارة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة العثمانية

في أوروبا

من سمات العبقرية في الحضارة الإسلامية

محمد يوسف عدس
مستشار سابق بمنظمة اليونسكو وخبير في شئون البلقان

تقديم

أ.د/ عادل حسن غنيم
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

القاهرة
١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٣٥٤ / ٢٠١٢م

ISBN
978- 977- 481- 068- 8

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عدس ، محمد يوسف .
الدولة العثمانية في أوروبا : من سمات العبقرية في الحضارة الإسلامية / محمد يوسف عدس ؛ تقديم عادل حسن غنيم .. ط١ .. القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠١٢ .
٩٦ ص ؛ ٢٤سم .
تدمك ٨ ٠٦٨ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الإمبراطورية العثمانية
أ - العنوان ب - غنيم ، عادل حسن (مُقدِّم)
٩٥٣,٠٩

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القاهرة : الأزهر ٧ حارة الصوافرة - أمام جامعة الأزهر
ت ٠٢/٢٥٩٢٠٠٧٨ - جوال ٠١٢٢/٣٦٧٦٧٩٧

المحتويات

* * *

تقديـم

الدكتور عادل حسن غنيم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

يَسرني ويسعدني أن أُقَدِّم إلى القارئ العربي هذه الدراسة القيمة التي أنجزها الكاتب الإسلامي الكبير محمد يوسف عدس الذي يتحدث فيه عن : سمات العبقرية في الحضارة الإسلامية ، من خلال الدولة العثمانية في البلقان .

ويقصد محمد عدس بـ « **عبقرية الحضارة الإسلامية** » تلك الصفات الرائعة التي تمثَّلت في قيم العدالة والتسامح والإنسانية والرحمة التي شهدتها تلك الحضارة .

وقد عبّر محمد عدس عن عبقرية الحضارة الإسلامية بنماذج مختلفة لم يخترْها من فترات الازدهار والتوهّج وإنما اختارها من عصور فُقدت فيها روح اللغة العربية حيث انتقلت السلطة الإسلامية إلى الأناضول على يد العثمانيين الذين يتحدثون اللغة التركية ولا يجيدون اللغة العربية ، لكنهم رغم ذلك استطاعوا أن يتمثلوا الحضارة الإسلامية بقيمها العظيمة ويقيموا مجتمعات تتمتع بالحرية والازدهار والعدل .

ورغم ذلك فقد تكالبت أوربا ضد العثمانيين ليس سياسيًا وعسكريًا فقط وإنما ثقافيًا أيضًا حيث حرروا الصفحات المليئة بالافتراءات عن العثمانيين خاصة الصرب التي بالغوا في الإساءة للعثمانيين ، وسايرهم كثير من المؤرخين العرب الذين سوَّدُوا صفحات التاريخ العثماني في العالم العربي ولم يروا في قرون الحكم العثماني سوى صفحات من التخلف والجهل والظلم العبودية ، ولم يحاولوا أن يكونوا منصفين وموضوعيين بحيث يعطوا للعثمانيين ما لهم وما عليهم .

لكن من حسن الطالع أنه نشأت في أوربا وفي العالم العربي حركة جديدة بدأت تعيد النظر في التاريخ العثماني وتكشف عن صفحات مشرقة ضمن هذا التاريخ من واقع الوثائق العثمانية التي أمكن الاطلاع عليها والتي مازال آلاف منها لم يطّلع عليه إنسان .

وتتمثل هذه الحركة في أوربا في بعض المؤرخين المنصفين الذين اعتمد عليهم محمد عدس وخص بالذكر ثلاثة منهم هم : « **توماس أرنولد ، ونويل مالكوم ، وهاري ثيرلويل نوريس** » .

وأما في مصر فهناك منذ أكثر من سبعة عشر عامًا سمنار للتاريخ العثماني يعقد بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية أنشأه المؤرخ المصري الراحل « رءوف عباس حامد » ويشرف عليه حاليًا الدكتورة نيللي حنا الأستاذة بالجامعة الأمريكية ، وكان مُقَرِّراه في سنوات سابقة الدكتور ناصر عثمان ثم الدكتور محمد صبري الدالي الأستاذ بجامعة حلوان ، ويحاول الباحثون في هذا السمنار إعادة النظر في التاريخ العثماني على ضوء الوثائق الجديدة أو المُتَاحة .

وفيما يتعلق بالبلقان وجد محمد عدس أن بعض المؤرخين الصرب يوجه إلى الدولة العثمانية اتهامات عديدة كشفها بعض المؤرخين الأوربيين المعاصرين وأثبتوا زيفها .

ومن تلك الاتهامات :

* أن العثمانيين فرضوا على الشعوب البلقانية نظامًا أجنبيًا غريبًا ، لكن الحقيقة أن الدولة العثمانية حافظت على كثير من النظم الاجتماعية والإدارية التي كانت سائدة في البلاد الأوربية وطورت بعضها إلى الأفضل .

* أما تحويل الفلاحين في البلقان إلى عبيد فقد استشهد المؤلف بالمؤرخ الأوربي توماس أرنولد الذي أوضح أن الفلاحين في المجر الذين عانوا من استبداد

الإقطاعيين كانوا يفرّون إلى المناطق التي يسيطر عليها العثمانيون كي يجدوا فيها ظروفًا ومعاملة أفضل .

* **أما بالنسبة لفرض الدين الإسلامي على المسيحيين في البلقان** فقد أوضح محمد عدس أنه كلام بعيد عن الحقيقة لأن الدولة العثمانية هي التي أنشأت النظام المِلّي كما أنها لم تتمحور حول الدين بقدر ما تمحورت حول القوة العسكرية .

* **أما الدّفْشِرْمة** وهم خمس أطفال الشعوب المهزومة في البلقان بشكل خاص كحصة لبيت مال المسلمين وهم الذين كان العثمانيون يجمعونهم من أحضان أسرهم في قرى البلقان ويحولوهم إلى الإسلام وتنظم لهم دراسات دينية ومدنية وعسكرية كي يُهيئوا لخدمة الدولة ، والتي كانت الأغلبية العظمى منهم يشكلون فرق المشاة التي أطلق عليها الانكشارية فيذكر محمد عدس على ضوء قراءاته أن الدفشرمة لم يكونوا رقيقًا حيث أن هذا النظام كان وسيلة للحراك الاجتماعي والترقي في سلم الطبقات الاجتماعية وأن كثيرًا من هؤلاء استعادوا صلتهم بأسرهم المسيحية وأسبغوا عليهم من خيراتهم الشيء الكثير ، وأنه لما تبين لسكان البلقان المسيحيين فائدة هذا النظام كانوا يطلبون من جيرانهم المسلمين أن يحلّ أبناؤهم فيه محل أبناء المسلمين . ورغم الفوائد التي ترتبت بعد ذلك على هذا النظام بالنسبة للمسيحيين في البلقان ، لكن في تقديرنا أن انتزاع الأطفال المسيحيين من أهاليهم وتهيئتهم تهيئة إسلامية هي عملية غير إنسانية ولا يتفق وروح الإسلام رغم أن ظروف توسع العثمانيين في أوربا وحاجتهم إلى دماء جديدة هو الذي اضطرهم إلى هذا النظام .

* **أما السباهي** وهم الذين كانوا في المراحل الأولى للتوسع العثماني في البلقان من الفرسان المسلمين الذين أنعم عليهم السلطان بإقطاعيات ، فلم تكن مقتصرة على

المسلمين وحدهم ، بل كان هناك عدد كبير من المسيحيين في هذه الطبقة العسكرية ، وأنه خلال بضعة أجيال تحول الكثير من أسر السباهي من المسيحية إلى الإسلام .

* **وفي حديثه عن قانون السلطان « سليمان القانوني »** ذكر المؤلف أن القوانين العثمانية كانت أكثر إنسانية من القوانين الصربية ، وأن القضاة العثمانيين كانوا يتمتعون بمستوى عالٍ من الضمير والعدالة .

ثم يتحدث محمد عدس عن تحسن أوضاع الفلاحين تحسنًا ملحوظًا في ظل الحكم العثماني ، وأن القانون العثماني حرص على تأكيد حقوق الفلاحين . وأوضح أنه كان من أهم عوامل ازدهار المدن ظهور مؤسسات الأوقاف التي كان لها دور هام في العناية بالمدن وتطويرها ، وكانت مؤسسات أهلية خالصة ، وأن الأغنياء خصّصوا للأوقاف إقطاعات كبيرة للإنفاق على مشروعاتها الخيرية ، وأن من أهم ما عنيت به مؤسسة الأوقاف إنشاء المدارس والمكتبات الملحقة بالمساجد ، وأن المسلمين في كوسوفا كانوا على اتصال بالإنتاج الثقافي التركي والإسلامي بشكل عام .

* أما بالنسبة لما ذكره بعض المؤرخين عن أسباب غير صحيحة لانتشار الإسلام في كوسوفا وعن فرضه قهرًا على المسيحيين وعن تحول كنائسهم إلى مساجد فقد فنَّد المؤلف هذه المزاعم اعتمادًا على كتَّاب أوربيين منصفين ، حيث اتفق كل من تومانس أرنولد ونويل مالكوم ونوريس في أن انتشار الإسلام في البوسنة لم يكن نتيجة إجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام ، وبناء على ذلك فقد استبعد المؤلف كثيرًا من الحكايات والتفسيرات الخاطئة والتي لا يوجد أي دلائل تاريخية تدعمها ، ومنها أنه كان هناك عملية استيطان واسعة من جانب العثمانيين حيث أن عملية التحول إلى الإسلام كانت عملية بطيئة استغرقت أجيالاً ، وأن اعتناق الإسلام كان اختياريًا تطوعيًا .

ومنها : نظرية اعتناق النبلاء المسيحيين للإسلام بالجملة بغية الاحتفاظ بأملاكهم وامتيازاهم الإقطاعية ، نظرًا لأن أراضيهم تحولت إلى ملكية السلطان من الناحية الرسمية على الأقل .

ومنها : خرافة التهرب من دفع الجزية لأن اعتناق الإسلام لن يرفع عن الشخص المتحول دفع ما عليه من زكاة واجبة وهي لا تقل عن قيمة الجزية وربما تزيد عليها أضعافًا بحسب ما يمتلكه المسلم .

ومنها : خرافة امتيازات المسلمين لأنه من الثابت تاريخيًا أن القسس والتجار المسيحيين كانوا يلبسون ثياب المسلمين ويركبون الخيول ويحملون أسلحتهم الخاصة. كما لم ينهض دليل على حرمان المسيحيين من بناء كنائسهم أو ترميمها .

وقَارَن المؤلف بين عدم استيلاء العثمانيين على الكنائس وتحويلها إلى مساجد إلا في أضيق الحدود وبين ما فعله الصرب الأرثوذكس حديثًا بمساجد المسلمين في البوسنة وبعضها كان من روائع الفن المعماري العثماني حيث كانوا يدكونها بالمدافع ويسوّونها بالأرض ، وكما فعله الصهاينة في فلسطين المحتلة .

وذكر المؤلف عاملين سَاعَدا على انتشار الإسلام في البوسنة وهما نظام الرقيق حيث كان الأسير ينال حريته إذا اعتنق الإسلام ، ونمو المدن وازدهارها في البوسنة خاصة مدينة سراييفو . وكشف المؤلف عن زيف الإدِّعاء الصربي بأن البوسنة كانت صحراء ثقافية إبان الحكم العثماني حيث ذكر كثيرًا من أعمال الفكر والأدب للبوسنيين إلى جانب الفنون الجميلة كالخطوط والمُنَمْنَمات التي اشتهر بها البوسنويون طوال الفترة العثمانية .

واقترح المؤلف ضرورة إعادة النظر في التاريخ العثماني ؛ لأن ما كتب في

المدارس والجامعات يتجافى مع الحقيقة ، وأن الباحثين الجدد لديهم الآن فرصة الاطلاع على وثائق لم تمنح للمؤرخين السابقين حيث حالت حكومة كمال أتاتورك بين الباحثين وبين الاطلاع على الوثائق العثمانية .

وينتهي المؤلف إلى خلاصة مفادها : **أنه ليس صحيحًا أن عصر الدولة العثمانية كان ظلامًا وطغيانًا ، كما يحلو لبعض المؤرخين والكتاب أن يزعموا ، وأن الامتزاج الحضاري وتقبل الآخرين والتأثير فيهم كان سمة من أبرز السمات في الحضارة الإسلامية منذ انطلاقها ، وأن ذلك ظهر بشكل واضح مع امتداد السيادة العثمانية إلى البلقان .**

وهكذا كان محمد يوسف عدس منذ أواخر القرن الماضي أحد الشخصيات البارزة التي فندت في الإعلام العربي كثيرًا من الأكاذيب التي أذيعت أو نشرت عن كوسوفا والبوسنة والتي تفجرت موجة أخرى منها بعد إعلان استقلال كوسوفا عن الاحتلال الصربي في ٢١ فبراير ٢٠٠٨م .

كما يلاحظ من خلال دراسته لتاريخ الإسلام في منطقة البلقان أن اليهود الصهاينة والصرب الذين أحسن الإسلام إليهم عبر التاريخ هم الذين يسيئون اليوم إلى الإسلام والمسلمين .

فقد لاقى اليهود في ظل الحضارة العربية الإسلامية معاملة طيبة ، إذ شهدوا في مصر والمغرب والأندلس نهضة ثقافية واجتماعية واقتصادية وازدهرت الحركة الفكرية اليهودية ازدهارًا كبيرًا حيث شارك كثير من علمائهم في مجالس العلم عند المسلمين ، وألف علماؤهم كثيرًا من الكتب الهامة في اللغة والفلسفة والعقائد والعلوم ، وتمتعوا بالتسامح والمعاملة الطيبة في وقت كانت فيه أوربا بدءًا من القرن

الثامن الميلادي قد بدأت تعامل اليهود معاملة معادية سواء بطردهم كما حدث في إنجلترا عام ١٢٩٠م أو مصادرة كتبهم وحرقها كما حدث في مناطق أخرى إلى حرمانهم من حقوقهم السياسية كما حدث في أماكن ثالثة .

وأما بالنسبة للصرب أو الصقالبة كما اشتهروا في التاريخ الإسلامي فقد عوملوا أحسن معاملة وساهموا بقسط وافر في الحياة الفكرية والأدبية في ظل الحضارة الإسلامية .

لكن كُلًّا من اليهود الصهاينة والصقالبة عاملوا العرب والمسلمين أسوأ معاملة وقد تم ذلك على يد الصهاينة بشكل خاص منذ السنوات السابقة لقيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨م حتى الآن من خلال مذابحهم الشهيرة للعرب مثل مذبحة دير ياسين وصبرا وشاتيلا ومذبحة قانا ومذابح جنين ورفح ومطاردتهم وحصارهم وسوء معاملتهم لعرب فلسطين حتى الآن .

وأما الصرب فقد شاهد العالم كله خلال العقد الأخير من القرن العشرين عمليات الإبادة الجماعية للمسلمين والمذابح المتتابعة ضد أهل البوسنة والتي حُوكم من أجلها عدد من قادة الصرب أمام المحكمة الجنائية الدولية .

تلك دراسة عن سمات العبقرية في الحضارة الإسلامية حرَّرها المؤلف في مقالات مختلفة تحت إطار البلقان تحت الحكم العثماني ، ثم رأى جمعها في كتاب حيث أنها تخدم فكرة واحدة وتتناول موضوعًا محددًا .

* * *

أما عن الكاتب محمد يوسف عدس :

فهو صديق عمر منذ المرحلة الثانوية مرورًا بالجامعة ثم فرقت بيننا الأيام والتقينا منذ بداية الثمانينات بجامعة قطر حيث كنت أستاذًا بقسم التاريخ وكان هو مدير مكتبة الجامعة حيث نهض بها نهضة غير مسبوقة ، وتطورت المكتبة على يديه تطورًا كبيرًا ، وأنشأ بالمكتبة نظامًا إلكترونيًا للاتصال بقواعد المعلومات العالمية بمركز لوكهيد ديالوج بكاليفورنيا في وقت لم يكن هناك شيء اسمه شبكة الانترنت .

وخلال وجوده في قطر كان أحد الأعضاء المؤسسين لمشروع « إسهامات المسلمين في الحضارة الإسلامية » الذي استهدف اختيار مائة كتاب من أبرز الكتب العربية وإعادة نشرها وترجمتها إلى اللغات الحية الكبرى .

وصدرت له في قطر مجموعة من المقالات في مجلات وصحف مختلفة كانت تدور معظمها حول الاستخدام الأمثل لموارد المكتبات وتهيئة الطلاب والمعلمين لعصر ثورة المعلومات وتدفقها ، وانتدب في مهام استشارية من قبل منظمة اليونسكو في عدد من الدول العربية منها مصر وسلطنة عمان واليمن الجنوبية والمملكة الأردنية الهاشمية .

وبعد استقالته من جامعة قطر عام ١٩٩٠م تفرغ للكتابة التي يعشقها ، وتمحورت دراساته ومؤلفاته حول الكشف عن مشكلات الأقليات المسلمة في العالم ومدى المظالم والمعاناة التي يتعرضون لها بدءًا من الفلبين إلى البوسنة والهرسك وكُسوفا والشيشان حيث صدرت له كتب عديدة في هذه الموضوعات .

ومن أشهر كتبه المترجمة : « الإسلام بين الشرق والغرب » لعلي عزت بيجوفتش الرئيس الأسبق لجمهورية البوسنة والهرسك وأحد كبار المفكرين

الإسلاميين في القرن العشرين ، وكتاب « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لمحمد إقبال ، وكتاب « الدولة اليهودية » لثيودور هرتسل الذي صدرت طبعته الثالثة من مكتبة البخاري عام ٢٠٠٩ والذي كان لي شرف مراجعته وتقديمه .

وما يزال محمد يوسف عدس رغم ظروفه الصحية الصعبة يمسك القلم في يده كالمحارب ويوالي كتاباته وإبداعاته خاصة في مجالات الإسلام والمسلمين وعبقرية الحضارة الإسلامية .

تحية للكاتب المتميز محمد يوسف عدس ودعوات إلى اللّٰه أن يعطيه الصحة والنشاط كي يتابع رسالته في خدمة الإسلام ، وفي كشف كثير من الخرافات والإدعاءات التي لحقت بالتاريخ الإسلامي وتفنيد كثير من الأكاذيب التي راجت في الإعلام العربي وتسليط الضوء على العديد من الحقائق الغائبة والمجهولة ، وإبراز سمات الحضارة الإسلامية وعبقريتها .

واللّٰه ولي التوفيق .

عادل غنيم

المقطم في ٢٠١٢/٩/٢٥م

مُقدِّمة المؤلِّف

حفَّزَني للتفكير في هذا الموضوع والكتابة فيه مجموعة من العوامل قد لا تبدو للناظر من أول وَهْلة ذات صلة بالموضوع .. ذلك لأن الحقائق والظواهر لها أبعاد وزوايا مختلفة وليست من البساطة بالقدر الذي نظن .. وبالتالي فإن إدراكنا لها واستجابتنا يختلفان من شخص إلى شخص آخر ، باختلاف الزاوية التي ينظر منها كلٌّ منهما .. واختلاف خبراتنا في الحياة ..

فلننظر إذن إلى بعض هذه العوامل لنرى كيف اتصلت في إدراكي بعضها ببعض :

أولا : كنت ـ على مدي خمسة عشر سنة ـ أفنّدُ ما كُتب وأُذيع عن كوسوفا والبوسنة في الإعلام العربي المشاهد والمقروء من أكاذيب وجهالات ، سجّلتها في كتابين وفى العديد من المقالات الصحفية والمحاضرات والندوات واللقاءات المتلفزة .. وكنت أظن أنني أديت واجبي على خير وجه ، وأن هذا اللغو الفكري والغثاء المعرفي لن تقوم له قائمة بعد ذلك .. ولكن يبدو أنني كنت واهمًا في اعتقادي ؛ فقد تفجرت موجة أخرى من الأكاذيب والجهالات في الإعلام المصري بعد إعلان استقلال كوسوفا عن الاحتلال الصربي في ١٧ فبراير ٢٠٠٨ .

حينذاك اعترفت دول كثيرة بهذا لاستقلال فيما عدا بعض الدول العربية وعلى رأسها مصر .. فقد كانت مصر فى ذلك الوقت لا تزال أسيرة لنظام الدكتاتور حسنى مبارك الذي كان هواه مع « صربيا » لأسباب غير مفهومة ، كحال بقية الطغاة العرب أمثال : « القذافي ، وزين العابدين بن على ، وبشار الأسد » ؛ ومن ثَمّ كان موقف الإعلام الرسمي في مصر مسايرا لهوى الدكتاتور .. فقد خرج علينا

الكّتاب بأفكار معادية لاستقلال كوسوفا وبمزاعم لا سند لها من منطق سوى تخويف الناس من استقلال كوسوفا وما يمكن أن يترتب عليه من آثار و مخاطر وهمية ، حتى أن بعض المعلقين زعم أن هذا الاستقلال سيؤدى إلى تهديد السلم العالمي وانطلاق حرب عالمية ثالثة .. هكذا .. . ! ولذلك فهو يحذّر العرب والمسلمين من الاعتراف بهذا الاستقلال ؛ لأنهم بهذا الاعتراف يقترفون جريمة لا تغتفر .. !

ثانيا : لاحظت خلال دراستي وتأملاتي في تاريخ الإسلام بمنطقة البلقان ، وبمناطق أخرى فى العالم أمراً عجبًا .. **خلاصته** : أن الذين أحسن الإسلام إليهم عبر التاريخ والذين آواهم المسلمون وكرّموهم ووفّروا لهم الأمن والسلام والازدهار في الحياة المادية والفكرية ، هم أنفسهم الذين يسيئون اليوم إلى الإسلام والمسلمين أبلغ إساءة .. وأنا أقصد على وجه الخصوص اليهود الصهاينة والصرب . فقد عاش اليهود في إطار الحضارة الإسلامية في أمن وسلام ومشاركة في ثمرات هذه الحضارة على قدم المساواة مع المسلمين والمسيحيين .. وبعد أن طردهم مسيحيو أوروبا مع المسلمين من الأندلس لم يجدوا حياة آمنة ولا مأوى لهم إلا في بلاد المسلمين ، وفي ظل العدالة الإسلامية التي شملتهم واحتضنتهم على امتداد الأرض الإسلامية من مراكش إلى إسطنبول وما وراءها ..

قَارن هذه الرحمة الإسلامية بالجحيم الذي تصبّه إسرائيل على إخواننا الفلسطينيين وعلى الأخص جريمة الإبادة والحصار والاستئصال الواقع عليهم في غزّة ... !

الغريب أن مثل هذا حدث مع الصرب أيضا وإن لم يكن مشهوراً في الكتابات العربية الجارية نظراً لبعض الالتباسات المعرفية في الفكر العربي ، خصوصاً وأن الصرب كانوا يُعرفون في التاريخ الإسلامي باسم آخر هو « الصقالبة » .. وسوف

نأتي على تفاصيل الأمر في حينه .. والمهم هنا هو أن الصقالية (الصرب) عاشوا في كَنف الحضارة الإسلامية وعوملوا أحسن معاملة وكانت لهم حياتهم الفكرية والأدبية البارزة .. وكانت لهم الحظوة في قصور الخلافة الإسلامية في الأندلس ودمشق .. ولكنهم شاركوا في عمليات الإبادة الجماعية للمسلمين بوحشية منقطعة النظير خلال العقد الأخير من القرن العشرين .. وأعلنوا بصراحة مكشوفة أنهم يقومون بمهمة استئصال المسلمين والإسلام من أوروبا نيابة عن الأوربيين ، وكان تواطؤ الحكومات الأوروبية مع الصرب تواطؤًا مؤكداً ومفضوحًا ..

ثالثا : خلال مُتابعتي لسير الحرب البوسنوية وتطوراتها ، حدث تحوّل درامي في مجرى الحرب بدأت تظهر تجلّياته اعتباراً من أول أكتوبر سنة ١٩٩٤ حيث أمسك المسلمون البسنويّون بزمام المعركة وشرعوا يحررون الأرض من الاحتلال الصربي ويوقعون بهم الهزيمة تلْو الأخرى : وكانت تعليمات قائدهم العظيم « على عزت بيجوفيتش » : « **أن الجنود المسلمين يُحاربون باسم اللّه .. فلا انتقام ولا معاملة بالمثل .. ولا تمثيل بالجثث ولا قتل للأنفس البريئة من الذين لا يحملوا السلاح .. ولا اعتداء على الأطفال أو النساء أو الشيوخ .. ولا حرق البيوت والزروع .. ولا قتل الحيوان حتى ولو كانت دجاجة** » .. وقد التزم الجنود المسلمون بوصية قائدهم فكظموا غيظهم وحاربوا كأشرف وأقوى ما يكون المُحَارِبون ..

وتلك حالة نادرة فى التاريخ لا ينبغي أن تمر علينا دون أن نتأمّل فيها بإمعان شديد ، وسوف نرى فيها نفحة من نفحات الرحمة الإنسانية التي غرسها النبي محمد ﷺ في أمّته .. وترسَّخت في نسيج الحضارة الإسلامية لتكون سمة بارزة من سمات العبقرية لهذه الحضارة .. حتى وهي تمر بأحلك الظروف وأضعف الحالات ..

انظر اليوم إلى خريطة العالم فسوف ترى العجب العُجاب ، وانظر لما يحدث في فلسطين وفي العراق وفي الصومال والسودان وفي أفغانستان وفى كشمير وفي الشيشان والفلبين .. في كل هذه البلاد يتعرَّض المسلمون الأبرياء للقتل اليومي بكل أنواع الأسلحة .. وربما من أقساها وأشدها إيلاماً أن قِلَّة من أبناء جلدتنا يتآمرون على إخوانهم المسلمين مع الأعداء .. قل إن شئت : عنْ حُمق أو عمالة أو سفاهة أو هوىً ، أو شهوة لسطوة أو سلطان أو مال .. فكل ذلك وارد .. وربما ما هو أكثر منه خسّة وشراً .. فمن يدري !؟ ... ولكن هذا كله لا ينبغي أن يصرفنا عن الرؤية الصحيحة ونحن في مجال المقارنة بين حضارة عنصرية تُهيمن اليوم على العالم وتبدو تجلياتها الشيطانية واضحة في فلسطين والعراق والبوسنة و كوسوفا وأفغانستان ، وبين حضارة الإسلام العظيمة التي رسَّخَتْ قيم العدل والرحمة والأخوة الإنسانية .. فهذه خصوصيات تنفرد بها الحضارة الإسلامية وهي ما أقصده من عبقرية هذه الحضارة ..

ولي مع هذه التسمية قصة خُضتها مع عدد من الكتب أَعَدت قراءتها في الفترة الأخيرة ، بعضها للمرة الثانية وبعضها للمرة العاشرة ؛ ففي كل مرة كنت أكتشف فيها شيئاً جديدًا .. إنها تجربة تتوهّج في عقلي توهّجاً ، أردْت أن أشرك معي فيها القارئ لعله يرى ما رأيت ...

لقد وجدت فيما قرأت أن العبقرية كما تُنسب إلى شخصيات إنسانية إذا توفرت فيها سمات فريدة متميزة ، واستطاعوا بأفكارهم وأعمالهم أن ينفذوا إلى أعماق مجتمعاتهم فيحوّلوها من الركود والتخلّف وانعدام الفاعلية إلى مجتمعات حية مستنيرة فاعلة ومؤثرة في محيطها القريب والبعيد ..

كذلك تُنسب العبقرية إلى المكان إذا توفَّرت له سمات فريدة تُمَيّزه عن سائر

الأماكن الأخرى .. وهذا ما لاحظه وقدمه لنا الدكتور « جمال حمدان » في كتابه الموسوم بعنوان : « **شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان** » ..

وقبله جاء عباس محمود العقاد ليكشف لنا لأول مرة عن عبقرية اللغة العربية في كتاب له بعنوان « **اللغة الشاعرة** » وهو لا يقصد أن العربية مُجَرّد وعاء طيّع للموسيقى الشعرية .. ولكنه يذهب أبعد من ذلك كثيراً ..

فهو يرى أن اللغة العربية تتميز عن جميع لغات العالم بموسيقية جُوّانية كامنة في نسيجها ورَصْف كلماتها واشتقاقاتها وحتى في أصوات حروفها ..

على هذا المنوال يطرح لنا الصديق المبدع الدكتور كمال عرفات أستاذ علم المكتبات والمعلومات في كتابه « **عبقرية التأليف العربي** » .. نظرية جديدة حول النصوص العربية يُطلق عليها « الببليوجرافيا التكوينية » .. ويستكشف ظواهر التواصل والتناغم بين ما هو معرفيّ وما هو سوسيولوجيّ (اجتماعيّ) في الحضارة العربية الإسلامية .. كما يكشف لنا عن ستين نوعاً من التأليف العربي يتوالد بعضها حول نصّ مؤثّر ، لتنشأ منظومة معرفية تمثل ما يسميه بـ « عائلة النَّصّ » ..

في هذا السياق لا يمكن التغاضي عما كتبه سيد قطب حول عبقرية التعبير القرآني ، كما كشف عنه باقتدار لأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي .. وذلك في كتابين مشهورين هما : « **التصوير الفني في القرآن** » و « **مشاهد القيامة في القرآن** » ..

بقي في هذه السلسلة المتميزة من الكتب كتابان لهما أهمية خاصة أحدهما كتاب « **الإسلام بين الشرق والغرب** » لمؤلِّفه المفكر الإسلامي العظيم على عزت بيجوفيتش ، والثاني هو موسوعة الدكتور عبد الوهاب المسيري « **اليهود واليهودية والصهيونية** » ؛ فهذه الموسوعة ليست فقط ـ مثل كل الموسوعات الأخرى ـ تحشد

قدْراً هائلاً من المعلومات والمعارف تتصف بالشمولية في موضوعها المتخصّص .. ولكنها تتفرد بشيء يميّزها عن جميع الموسوعات التي عرفتها ودرسْتها ؛ إنها تتميز بنماذجها التفسيرية التحليلية .. فالفيلسوف عبد الوهاب المسيري يرى أن استخدام النموذج حتمي وأساسي في مواجهة الواقع والمعلومات .. إذْ بدونه لا نفهم شيئا .. وتبقى هذه المعلومات نثاراً مُشتّتاً لا رابطة بينها ولا معنى .. يسجّلها العقل على صفحة بيضاء تسجيلاً أبْلهًا .. لذلك فإن من أهم ما في الموسوعة مقدّمتها الفلسفية وما اشتملت عليه من دراسة تحليلية للنماذج : أنواعها وسماتها وطريقة صياغتها ..

ولكنني أضع في بؤرة اهتمامي ـ هنا بصفة خاصة ـ فكرة عبد الوهاب المسيري عن « فشل النموذج المادي في تفسير ظاهرة الإنسان » .. والسبب في ذلك هو أن هذه الفكرة هي الحلقة الأساسية التي تربط بين عمل عبد الوهاب المسيري وبين عمل على عزت بيجوفيتش في كتابه العبقري « **الإسلام بين الشرق والغرب** » ؛ فعلي عزت يؤكد أن الإنسان فيه شيء أكثر من المادة ولا يمكن أن يكون وجوده في الكون محض صدفة طبيعية عمياء ؛ لأن أبرز ما في الإنسان وما يتميّز به عن سائر الكائنات أنه يتمتع بحرّية الاختيار ويستحيل أن تصنع الطبيعة العمياء إنساناً حرّاً .. فاللّه وحده هو القادر على أن يخلق إنساناً حرّا .. وإذن فالإنسان مخلوق للّه .

الوجه الآخر من الاتصال بين الكتابين أن عبد الوهاب المسيري أثبت فشل الأُحادية في الفكر الغربي المادي .. وجاء على عزت بيجوفيتش ليؤكد الثنائية في الفكر الإسلامي .. وأبدع نموذجاً تفسيرياً لفهم الإسلام سمّاه « الوحدة ثنائية القطب » .

لن أخوض في هذا الموضوع فليس هذا مجاله ، إنما ألتقط من هذا كله خلاصة نهائية وهي أن الحضارة التي أُقيمت على أَساس من الإسلام لابد أن تكون حضارة إنسانية عبقرية ..

عبقرية بمبادئها الأخلاقية في العدل والتسامح ..

عبقرية في نظرتها إلى الإنسان : من حيث أنه يتمتع بنفحة إلهية تؤهلّه لأن يكون حرّاً مسئولاً عن اختياراته .. ومن حيث أنه مُكرَّم من قِبل خالقه فلا يجوز إكراهه على اعتناق دين لا يريده « لا إكراه في الدين » ..

عبقرية في احتضانها لكل البشر على السواء لا فرق بين أبيض وأسود .. عربي أو أعجميّ .. مسلم أو غير مسلم .. لذلك لم يتورط أصحاب الحضارة الإسلامية في استعباد الشعوب الأخرى أو إبادتها وانتهاب ثرواتها ، مثلما تورطت الحضارة الغربية ، ذات النزعة العنصرية الاستعلائية .. فأبناء هذه الحضارة الغربية ينظرون إلى الإنسان باعتباره مجرد مادة غبية استعمالية .. تستخدمها حتى تستنزف طاقتها ثم تُلقى بها في صناديق القمامة .

تعبر الحضارة الإسلامية عن نفسها بقوة أخّاذة في كل عصورها التاريخية حتى في عصور ضعفها ووهنها .. والنماذج التي سأتناولها تدليلاً على هذه الحقيقة لم أخْترها من فترات الازدهار والتوهّج والقوة ، وإنما من عصور خفتت فيه روح اللغة العربية وكانت هي القالب اللغوي العبقري الذي استوعب الثقافة العربية الإسلامية وإبداعاتها في الفكر والفلسفة والعلوم بكل أصنافها .. وذلك إبّان فورتها وانطلاقتها العملاقة ..

لقد انتقلت السلطة الإسلامية إلى الأناضول على يد العثمانيين الذين لا يجيدون اللغة العربية وإنما يتحدثون باللغة التركية .. ومع ذلك بقيت سمات واضحة من روح الحضارة الإسلامية وجوهرها ، متجذّرةً فى قلب النظام العثماني لعدة قرون .. فلما فتح العثمانيون شرق أوروبا وتركزوا في منطقة البلقان استطاعوا أن يقيموا حضارة إسلامية جديدة وأن يبنوا مُدناً جديدة وينشئوا مجتمعات على أساس من قيم العدل والمساواة في

وقت كانت أوروبا كلها غارقة في الجهل ، و ترزح تحت وطأة الظلم والفقر والقذارة ..

كانت المناطق التي يحكمها العثمانيون تتمتع بالحرية والازدهار والنظافة وبحبوحة العيش ، بينما كانت المناطق الأخرى ترزح تحت وطأة الإقطاع الأوروبي المستبد .. في ضيق العبودية والفقر والجهالة وظلمات العصور الوسطى ..

أعلم أنني بالتطرّق إلى هذا الموضوع إنما أخوض في طريق وعرة مليئة بحقول ألغام معرفيّة .. زرعها الكُتّاب الغربيون الحاقدون .. وتابعهم فيها الجُهَّال والإمّعات من بني جلدتنا .. وأعلم أيضاً أن ثقافتنا المَوروثة قد اختُزِلت الأتراك العثمانيين إلى « كليشيهات » محفوظة تتردد في الأعمال المسرحية والسينمائية والتلفازية .. نسمعها على لسان شخص يمثّل رجلًا تركيّا فظّا أو امرأة تركية متعجْرفة وهما يخاطبان المصريين بعبارت ركيكة النطق مكرورة : « فلاح .. خرْسيس .. أدبسيس .. يوك » .. هل تعرف شيئاً أكثر عن الأتراك غير هذه العبارة ... !؟

لقد تَكالبت أوروبا كلها ضد العثمانيين عسكرياً وسياسياً وثقافياً .. وسوّدوا آلاف الصفحات بالافتراءات والأكاذيب عليهم .. وكان الصرب أشدهم عداوة وأكثرهم افتراءً وكذباً ... ولكن بدأت في أوروبا حركة معاصرة تعيد النظر في التاريخ العثماني وتَكشف عن الحقائق الصحيحة من الوثائق الرسمية التي كانت مستورة بعيداً عن أعين الباحثين . ولقد اعتمدت في دراستي هذه على كتابات هؤلاء المؤرِّخين المُنْصِفين وعلى الوثائق التي نشروها .. وأَخُصُّ بالذكر منهم ثلاثة : « توماس أرنولد ، ونويل مالكوم ، وهارى ثيرلُويل نوريس » .

محمد يوسف عدس

ملبورن ـ استراليا
٢ مايو ٢٠١٢

البلقان تحت الحكم العثماني

يحلو لبعض الكتّاب والمؤرِّخين وخصوصاً الصرب منهم أن يُثِيروا حول مسلك الدولة العثمانية وحكمها في البلقان اتِّهامات أبعد ما تكون عن الصِّحة ..

من هذه الاتهامات :

١- أن العثمانيين فَرَضُوا على الشعوب نظاماً أجنبياً غريباً .

٢- وأنهم قمعوا الهوية القومية لهذه الشعوب .

٣- وأنهم جلبوا استيطاناً تركياً كثيفاً في هذه البلاد .

٤- وأنهم حوّلوا الفلاحين إلى عبيد .

٥- وأنهم فرضوا على المسيحيين قانون الشريعة الإسلامية .

٦- وفرضوا عليهم الإسلام بالقوة .

٧- وأدخلوا في قانون العقوبات ممارسات بربرية كبتر الأطراف وأعضاء الجسم الأخرى .

والحقيقة أن الدولة العثمانية لم تفرض نظاماً أجنبياً كما يزعمون ، وإنما على عكس من ذلك تماماً فقد حافظت على كثير من قواعد الحياة الإدارية والاجتماعية التي كانت سائدة في البلاد المسيحية ، وطورت بعضها إلى الأفضل بما يخدم مصالح الشعوب .

ولا يغيب عن الذهن أننا نتحدث عن العصور الوسطى ، حيث كانت دول أوروبا وشعوبها غارقة في التخلف والجهل وتُعاني من الفساد والاستبداد ، بينما كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة الناشئة المتقدمة المستنيرة والعادلة أيضاً ..

والكلام عن قمع الهوّيات القومية في ذلك الوقت كلام لا معنى له ؛ ذلك لأن الفكرة القومية أو الهوية القومية لم تظهر (على الأخص في منطقة البلقان) إلا خلال القرن التاسع عشر .. ولكن الأتراك العثمانيين كانوا في موقع السيطرة على البلقان في منتصف القرن الخامس عشر ، يعنى قبل ظهور القوميات بأربعة قرون على الأقل .

* **أما حكاية تحويل الفلاحين إلى عبيد** : فتلك فرية أخرى لا نصيب لها من الحقيقة والأمر - ببساطة - أن الفلاحين في أوروبا كلها ، ولم يكونوا أحراراً تحت سيطرة الإقطاع الجائر ، ولم يتحولوا إلى عبيد على يد العثمانيين ، بل اكتسبوا في ظل الحكم العثماني حقوقاً لم يحلموا بها من قبل ، وكانوا يعاملون معاملة إنسانية أفضل بكثير من قرنائهم تحت نير الإقطاع الأوروبي .

ذكر المؤرخون المنصفون أمثال « توماس أرنولد » أن الفلاحين الذين عانوا طويلاً من استبداد الإقطاعيين في المجر ، كانوا يحرقون أكواخهم ويأخذون نساءهم وأطفالهم وأدواتهم الزراعية ، ويفرون إلى المناطق التي كان يسيطر عليها العثمانيون المسلمون .. ليجدوا فيها حياة أفضل ومعاملة أرحم من معاملة الإقطاعيين المسيحيين .



توماس أرنولد

* **أما موضوع فرض الدين الإسلامي على المسيحيين** : فقد كثر فيه كلام الأدعياء وخرج من إطار الحقيقة والموضوعية إلى مجال الكذب ، وسُوء تفسير الوقائع والأحداث وإثارة الشبهات .

* **كذلك موضوع فرض الشريعة الإسلامية وقوانينها على المسيحيين** : هذا الكلام أقل ما يُقال فيه أنه زعم باطل ؛ ذلك لأن النظام القانوني للعثمانيين كان نظاماً

مركباً ، ولم تكن الأحكام الشرعية فيه إلا عنصراً واحداً من عناصره العديدة ، وأوضح دليل على ذلك قانون السلطان سليمان .

ولم تكن الدولة العثمانية من التخلف والغباء لكي تفرض أحكام الشريعة الإسلامية على غير المسلمين ، وهم لا يرغبون فيها ولا يريدونها بل على العكس من ذلك تماماً ، فالدولة العثمانية هي التي أنشأت « النظام المِليِّ » الذي ترك مسألة القضاء والأحكام في يد رؤساء الكنائس يتصرفون فيها بحرية دون تدخل من الدولة .

والذي يتعمق في فهم الخصائص الأساسية للدولة العثمانية سوف يرى أنها لم تكن تتمَحْور حول الدين بقدر ما كانت تدور حول القوة العسكرية وردع القُوى الأجنبية المُعادية ، على هذا الأساس قامت دولتهم المبكرة في الأناضول ، وإذا رجعنا بالتحليل إلى الوراء أكثر من ذلك لوجدنا أن هذه السمات عميقة الجذور في مجتمعاتهم القبلية السالفة .

وعلى كل حال كان قيام الدولة العثمانية ظاهرة طبيعية وصحية في كيان الأمة الإسلامية التي كانت لا تزال معرضة لتهديدات الغزو التتري من الشرق ، والغزو الصليبي ضد المسلمين لم يزل حلماً يراود القوى الأوروبية في الغرب .

وتلاحظ في تاريخ الدولة العثمانية من حيث علاقاتها الخارجية نزعتان بارزتان تبدوان لأول وهلة متناقضتين : نزعة توسعية إمبراطورية ، ونزعة تسامح بالغة الوضوح ، لاشك أنها تأثير إسلامي خالص . لذلك لم يكن التمايز بين مسلمين ومسيحيين وإنما انقسم الناس إلى فئتين وظيفيتين : فئة الذين يُقاتلون في الحروب ، وفئة الذين يدفعون أُجور هؤلاء المُقَاتِلين ، فأولئك الذين ينتمون إلى الآلة العسكرية للسلطان كانوا يعرفون باسم « العسكر » .. وهو اسم لطبقة لا ترتبط بالضرورة بوظيفة

حربية ، وإنما كانت تشمل كل من يمارس وظيفة أو سلطة مفوّضة من السلطان ، ولذلك شملت إلى جانب المقاتلين فئات القضاة ، وموظفي الدولة بكل درجاتهم ، بل ورجال الدين أيضاً مسلمين ، ومسيحيين ويهود ، وكان أعضاء هذه الطبقة مُعْفون جميعاً من دفع الضرائب ، أما فئة دافعي الضرائب فكان يطلق عليهم اسم « الرعية » سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين .

النظام العسكري والإدارة :

كانت القوات المحاربة في الدولة العثمانية تنقسم بدورها إلى مجموعتين : مجموعة الذين يتلقون مرتبات . ومجموعة الذين كانوا يُمنحون إقطاعيات من الأرض ، تشمل المجموعة الأولى القوات البحرية وبعض فئات من الفرسان ، ومن أبرز هذه الفئة وأكثرها شهرة في التاريخ هم فئة « الإنكشارية » وهؤلاء كانوا يُعتبرون القوات الخاصة للسلطان ، وهم عادة من الجنود المأسورين في الحروب ومن الشباب المسيحي الذين كانوا يخضعون لنمط خاص من التنشئة فيما عرف باسم نظام « الدِّفْشرِمَة » .

تطورت عملية التجنيد خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين حيث كان يطوف ممثلوا السلطة في قرى البلقان مرة كل سبع سنوات ، أو أقل لتجنيد الشباب الصغار تجنيداً إجبارياً ، وكان على كل عائلة أن تقدم عن كل أربعين فرداً فيها واحداً للتجنيد ، فكانوا يُنقلون إلى الأناضول وإسطنبول ليلتحقوا بالمدارس السلطانية ، فَتُنَشِّئهم تنشئة إسلامية ويتعلمون اللغة التركية ، ويتدربون إمَّا على القتال ، وإمَّا على الإدارة والعمل في الحكومة والقصور السلطانية ، وكان هذا هو السبيل للترقي إلى المراتب العليا في الدولة ، فكثير من الوزراء العظام وكثير من

رجال الديوان السلطاني بدأوا حياتهم بهذه الطريقة .

* **والذين يتحدثون عن الرقيق وعن قسوة العثمانيين** ؛ لأنهم كانوا ينتزعون الصبيان المسيحيين من أحضان أسرهم في قرى البلقان ، لم يحاولوا أن يفهموا هذا النظام ، وإنما وصفوه بأنه رقيق .. فهل يصدّق عاقل متزن الفكر أن « الدفشرمة » كانت رقيقاً ؟ بينما رأينا أنها وسيلة للحراك الاجتماعي والترقي في سلم الطبقات الاجتماعية ، وكانت طريق أبناء الرعية البسطاء الفقراء ، لكي يصبحوا أعضاء في الطبقة العليا الحاكمة في المجتمع .

كثير من هؤلاء استعادوا صِلتهم بأسرهم المسيحية وبالمناطق التي جاءوا منها ، وأسبغوا عليها من خيراتهم الشئ الكثير ، ولما تبيّن لسكان البلقان المسيحيين فائدة الالتحاق بهذا النظام كانوا يطلبون من جيرانهم المسلمين أن يحلّ أبناؤهم فيه محل أبناء المسلمين .

وقد ظهر في القرن الخامس عشر اثنان من ألبان كوسوفا يشغلان منصب الوزير الأعظم في الدولة العثمانية وهو المنصب التالى لمنصب السلطان .. هما : « جديك أحمد باشا » و « داوود باشا » ، وبلغ مجموع الوزراء من كوسوفا وألبانيا خلال التاريخ العثماني اثنين وأربعين وزيراً ..

فهل يمكن بعد هذا أن يُوصف النظام العثماني بأنه كان نظاماً للرقيق..؟

ونحن نعلم بالمقارنة ماذا كان وضع الرقيق فى الإمبراطورية الأمريكية .. وبماذا تسمّى وضع ألبان كوسوفا تحت السيطرة الصربية ، التي كانت تحرّم عليهم العمل في الوظائف الحكومية وفي المصانع وهم أبناء البلاد ، ويفضّلون عليهم الصرب وهم مستوطنون وافدون !؟ .. ثم يدّعي الصرب بأن كوسوفا جزء من صربيا ..!

وبماذا نَصِف مشهد الملايين من الأفريقيين الأحرار الذين كانوا يُصطادون من قراهم كما تُصْطاد الحيوانات البرية ثم يُسَاقون إلى السفن مسلسلين في القيود وينقلون عبر المحيط إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ليعيشوا حياة العبودية والفقر والمهانة تحت سياط الرجل الأمريكي المتحضر في العصر الحديث وليس في القرون الوسطى .. ؟! .

لقد كان الأسلوب العثماني هذا طريقاً للحراك الاجتماعي ، وقد ترتَّب عليه أمران هامان في تغيير المجتمعات البلقانية :

أولهما : أن الناس ـ بطريقة غير مباشرة ـ بدءوا يفهمون حقيقة الإسلام وتسامحه ، ومن ثم أقبلوا عليه وانتشر في مجتمعاتهم .

وثانيهما : إبراز حقيقة أن الطبقة الحاكمة في البلقان كانت مزيجاً من أبناء الشعوب المحكومة ، فإذا كان مصطلح « الأتراك » هو الذي وُصف به العثمانيون عند ظهورهم في البلقان أول الأمر ، فإن مصطلح « العثمانيين » هو الذي غلب على الاستخدام بعد ذلك للتعبير عن الانتماء والمشاركة في السلطة ، فكان رجال الإدارة والموظفون من أبناء البلقان يُطلقون على أنفسهم « عثمانيين » بهذا المعنىٰ ، وقد أخطأ الرحالة والكتّاب الأوروبيون الذين خلطوا في كتاباتهم فلم يفهموا أن من كان يقدّم نفسه إليهم بوصفه « عثماني » لا يعنى بالضرورة أنه تركي ، وإنما من الأهالي المحليين ، فقد كانت « العثمانية » أسلوب حياة ونمط حضارة وليست انتماءً قومياً بالنسبة لأبناء البلقان ...

إلى جانب الإنكشارية هناك عنصر آخر من عناصر الطبقة العسكرية يتمثل في الفرسان المعروفين باسم « سباهي » ، وهؤلاء كانوا يُمنحون إقطاعات من الأراضي تتفاوت في مساحتها فكان النوع الأشهر منها يُسَمَّىٰ « تيمار » والنوع الأكثر شيوعاً

كان يُسمى « زيميت » .

وكان من أول واجبات « السّباهي » أن يكون مستعداً لتلبية نداء السلطان عندما يستدعيه إلى الحرب ، وكان عليه أن يُحضر معه المقاتلين مسلحين ومدربين ، فإذا فشل أحد « السباهي » في الاستجابة الفورية لنداء السلطان يُجرد من إقطاعيته ، وتُنقل إلى « سباهي » آخر ؛ فالمالك الأصلي للأرض من الناحية القانونية الشكليّة هو السلطان ، ولكن من الناحية العملية كان « التّيمار » يبقى عادة في حوزة « السباهي » ويرثه أبناؤه من بعده شريطة أن يقبلوا تأدية الواجبات العسكرية المتعلقة به ، وعلى ذلك فلم يكن « التيمار » في حقيقته ملكية مطلقة للأرض وإنما ملكية تنصبّ على الانتفاع بريع الأرض ، أعنى الحصول على نسبة من دخلها يدفعه له الفلاحون الذين يزرعونها .

وهنا صميم الاختلاف بين « السباهي » أو « الإقطاعي العثماني » ، وبين « الإقطاعي الأوروبي » الذي يملك الأرض ومن عليها ملكاً مطلقاً ، ويتحكم في الأرض ، وفي الفلاّح كما يشاء له الهوى . أما « السباهي » فإلى جانب واجباته العسكرية كانت له وظيفة إدارية أخرى تشتمل على جمع الضرائب فيحتفظ بجزء محدد منها لنفسه ، ويرسل الباقي إلى خزانة الدولة .

في المراحل الأولى للتوسع العثماني كان « السباهي » من الفرسان المسلمين الذين يُحاربون متطوعين في جيش السلطان ، ثم أنعم عليه السلطان بإقطاعيات على هذا النحو الذي ذكرناه من الأراضي المفتوحة ، وخاصة الأراضي التي كان يملكها النبلاء الإقطاعيون ، ثم تخلّوا عنها وفرّوا هاربين بعد انهزامهم في الحروب أمام العثمانيين .

لم تكن طبقة « السّباهي » مقصورة على المسلمين بل كان هناك عدد كبير من المسيحيين في هذه الطبقة العسكرية ، كانوا عادة من مُلّاك الأراضي الذين لم يشتركوا في مقاومة الجيش العثماني ، بل أعلنوا ولاءهم للسلطان ، أو من المسيحيين ذوى النفوذ والفرسان الذين أبدوا استعدادهم للعمل في خدمة السلطان العثماني .

لم تكن الدولة العثمانية إذن تفرق في هذا بين المسلمين والمسيحيين كما يزعم المؤرخون المتحيّزون ، ولم تكن هذه الامتيازات مقصورة على طبقة « السباهي » فقط ، بل امتدت إلى فئات أخرى من المسيحيين أُعفيت من دفع الضرائب : بعضهم كان منخرطاً في الخدمة العسكرية بالأجر فيما عرف باسم « مارتولوس » ، وبعضهم من الفرسان المسيحيين المعروفين باسم « فونيوكس » ، وكانوا مسئولين عن حراسة حدود الدولة ، وحراسة المناجم والطرق وتأمينها من اللصوص وقُطّاع الطريق ، وكانت الطرق الجبلية بصفة خاصة موكولة بحراسة مجموعة من المسيحيين تُسَمَّىٰ « ديربند » ، ويدخل في هذه الفئات المُعفاة من الضرائب الحرفيون صُنّاع الأسلحة والذخيرة لتموين الجيش العثماني ، بل كان المشتغلون بتربية صقور الصيد من بين هذه الفئات .

خلال بضعة أجيال تحولت أُسَر « السّباهي » من المسيحية إلى الإسلام ، وبذلك اختفت تقريباً ظاهرة « السباهي » المسيحي من السجلات العثمانية قبل نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، وإن بقى عدد قليل منهم حتى القرن السابع عشر ، ذكرت سجلات الكنائس أن بعضهم كان ينفق كثيراً من أمواله على بناء كنائس وأديرة في « بليفيا » و « سنجق نوفى بازار » سنة ١٦٥٢م ، وبعضهم الآخر أنفق أمواله على ترميم وطلاء البطرياركية الصربية في « بيتش » سنة ١٦٣٣م ،

ويذكر البطريارك الأرثوذكسي في مذكراته سنة ١٦٤٥م اسم اثنين من كبار المحسنين « السّباهي » يُدْعَىٰ أحدهما « ميلوش » والآخر « إستوكيو » ...

قانون السلطان سليمان :

أكمل وثيقة في القانون الجنائي العثماني تُسَمَّىٰ « قانون السلطان سليمان » الذي عُرِف باسم « سليمان القانوني » أو « سليمان العظيم » ربما يرجع تاريخها إلى الفترة بين سنة ١٥٣٤م إلى سنة ١٥٤٥م .



سليمان القانوني

فإذا قارنا بين هذا القانون العثماني وبين قانون « قيصر دوشان » الصربي لوجدنا أن القوانين العثمانية كانت أكثر إنسانية وأبعد عن روح الطبقية العنصرية التي اتسمت بها القوانين الصربية ، ذلك رغم احتوائها على أحكام تبدو في ظهارها قاسية مثل عقوبة الإعدام لقطاع الطرق ، ووسم القوادين ، ومروّجي الفاحشة ، وقطع اليد في جرائم السرقات الكبرى ، وكانت عقوبة الغرامة في بعض الجرائم الأخرى يتحمَّل فيها المسلمون ضعف عقوبة المسيحيين واليهود .

ويذكر « **نويل مالكوم** » أنه في القضايا بين المسلمين والمسيحيين كان المسلمون يشهدون لصالح المسيحي إذا كان صاحب حق ، وتلك دلالة لا يَصِحُّ المرور عليها مروراً عابراً ؛ لأنها تؤكد أن العدالة كانت حاضرة بقوة في ضمائر الناس بقدر ما كانت متحققة في القضاء ، وهذا ما يدعّمه رأي أساتذة التاريخ

الحديث في أوروبا ، فهم يعتقدون ـ بناء على ما تجمع لديهم من شواهد ، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ـ أن القضاة العثمانيين كانوا يتمتعون بمستوى عالٍ من الضمير والعدالة ، ويوافقون على مقولة المؤرخ الكوسوفي المولد « سيلازيد صالح شلبي » (١٤٩٩ ـ ١٥٧٠) في وصفه لفترة حكم السلطان سليمان القانوني : « **إن أبواب الظلم والعدوان قد أُغلقت بمسامير القانون** » .

يجب أن يكون واضحًا لنا هنا أننا نتحدث عن منظومة حاكمة لا مزاج فرد أو أفراد .. إننا نتحدّث عن سمات حضارة عبقرية تأبى إلاّ أن تعبّر عن نفسها (حتى في قلب ما يسمّونه ظلام العصور الوسطى) .. ثمّ قارن بين هذا الموقف الإنساني وبين العدالة فى « جوانتانامو و أبو غريب » ونحن في قلب القرن الواحد والعشرين .. على يد الولايات المتّحدة الأمركية ... !

الفلاحون والقانون :

تحسَّنت أوضاع الفلاحين تحسُّنًا ملحوظاً في ظل الحكم العثماني وأصبح الفلاح الكوسوفيّ يتمتع بمزايا عديدة لم يكن يحلم بها في ظل الإقطاع الصربي ، أصبح يملك البيت الذي يسكنه ، ويملك إلى جواره حديقة صغيرة لزراعة الخضروات ، وقطعة أرض زراعية صغيرة تسمى « تشفْت » وهي مساحة تسمح بزراعة كل ما يحتاجه الفلاح وأُسرته من خضروات للاستهلاك المنزليّ ...

كانت الضرائب الأساسية التي يؤدِّيها الفلاحون تتمثل في ضرائب على المحاصيل الزراعية لأرض التيمار بنسبة ١٠% ، وعلى الأرض الخاصة بالمسيحيين ضريبة تُسَمَّىٰ « إزْبِنس » والخاصة بالمسلمين باسم ضريبة « رسم تشِفْت » .

وشمل نظام الضرائب أيضاً رسوماً ضريبية على السلع المباعة في الأسواق

(ضرائب تجارية) ، وكان على المسيحيين الذين لا يؤدون الخدمة العسكرية أن يدفعوا ضرائب على الرءوس لا يدفعها إلاّ الرجال القادرون .. ويُعفىٰ منها غير القادرين ، كما كان يُعْفى منها الأطفال والنساء وكبار السّن ..

لا شك أن تَحَسُّنًا ملحوظاً طرأ على وضع الفلاح في كوسوفا ، فقد تلاشىٰ العمل الإجباري الذي كان مفروضاً على الفلاحين في الإقطاع الصربي ، وكان الفلاح مقيداً لا يستطيع مغادرة أرض الإقطاعي ، فإذا تمكّن من الهرب وقُبض عليه قطعت أطرافه ، أما في العهد العثماني فقد ألغيت هذه العقوبة وتحولت إلى غرامة مالية صغيرة ، كانت تسقط بالتقادم ، هذا التيسير سمح للفلاحين أن ينتقلوا من الأرض إذا رغب أحدهم في ممارسة الحرف الصناعية في المدن .

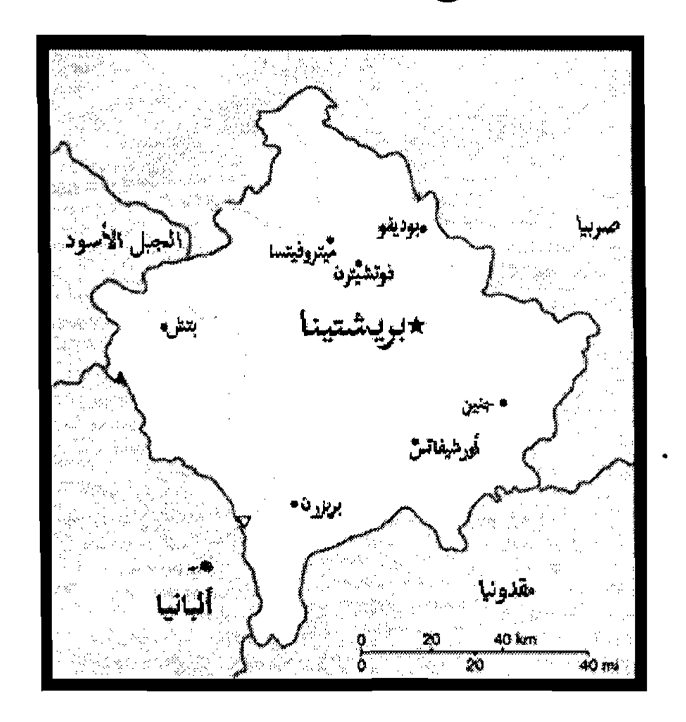
ربما كان أهم من كل ذلك أنه لم يكن هناك شئ في القانون الصربي يحمي حقوق الفلاحين ويُحَدِّد علاقتهم بمالك الأرض الذي كانت إرادته هي القانون ..

أما القانون العثماني فقد حرص على تأكيد حقوق الفلاحين وتحديد العلاقة بينهم وبين أصحاب الإقطاع . وفي هذا المجال صدر فرمان عثماني سنة ١٥٦٠م يقول : « **على منفذي العدالة ألا يتدخلوا في شُئون أحد من الرعية أو يرهقوه ، دعوه يملك الأرض كما يشاء طوال حياته فإذا توفِّىٰ دعوا ابنه يمتلك الأرض بعد أبيه** » .

يقول المؤرّخ موتافتشيفا : « كانت مجموعة الحقوق والفوائد الجديدة التي تمتع بها الفلاحون أكثر وضوحاً في القرن السادس عشر الميلادي ، وكانت معلومة لدى الشعوب في منطقة البلقان ، وهذا ما شجَّع كثيرًا من الفلاحين في المناطق التي لم يصل إليها الفتح العثماني على أن يهجروا أراضيهم ويذهبوا إلى المناطق العثمانية ليستقروا فيها » .

الازدهار الاقتصادي والحضري في « كوسوفا » :

على مدى القرنين الأولين للحكم العثماني ازدهرت الزراعة في « كوسوفا » ، وكان إنتاج المحاصيل في وفرة دائمة ، لا لسد احتياجات الاستهلاك المحلي فحسب ، وإنما كان يحقق فائضاً للتصدير ، وكان تجار « راجوسا » يحصلون على هذا الفائض مباشرة من الفلاحين ، ولم تكن السلطات العثمانية تتدخل في حرية التجارة إلا نادراً لتمنع المجاعة إذا شحّ محصول القمح في سنة من السنين ، عندئذ كانت تحظر تصديره إلى الخارج .



ومن المنتجات الزراعية الأخرى التي اشتهرت بها « كوسوفا » : الزعفران وتربية دود القز (لإنتاج الحرير) ، كما تميَّزت مناطق غرب « كوسوفا » خاصة بمحاصيل الفاكهة وتربية قطعان الماشية ، وتربية نحل العسل في منطقة « ناهيا » بسنجق

« فوتْشتِيرن » ، وكان العنب من أهم محاصيل « كوسوفا » .

أدرك الحكام العثمانيون مبكراً القيمة الاقتصادية للمناجم ، ولذلك عندما فتحوا « نوفوبْردو » شجعوا رجال التعدين وعُمّال المناجم للبقاء في مواقعهم ، واحتفظ المعدِّنون بالإدارة الذاتية فكانوا ينتخبون من بينهم مجلساً لإدارة شئونهم وتنظيم صناعتهم ، وتمتعوا بإعفاءات ضريبية منها ضريبة الرءوس ، حتى العمال الذين كانوا يعملون في وظائف بسيطة ولكنها مُتَعَلِّقة بالتعدين مثل النقل والمواصلات ، كانوا أيضاً يُعفون من هذه الضريبة .

كانت الصادرات الرئيسية من المعادن والمحاصيل والمنتجات الزراعية مثل الجلود والصوف يذهب معظمها إلى أوروبا عبر « راجوسا » أكبر مراكز التجارة في البلقان .. وفي مقابل ذلك كان تجار راجوسا يجلبون إلى « كوسوفا » المنسوجات والسكر والبهارات والمرايا وغيرها من المصنوعات .

اتَّسَع العمران في ظل النظام العثماني وازدهرت المدن ، وأدّى الاستقرار وانتشار الأمن إلى اتساع النشاط التجاري في كوسوفا في الفترة بين أواخر القرن الرابع عشر ، وأوائل القرن الخامس عشر ، وازداد سكان المدن بنسبة ٧٠% .. من بين هذه المدن بصفة خاصة مدينة « فوتشيرن » ومدينة « بريزرْن » باعتبارهما مركزي إدارة الإقليم .

مؤسسة الأوقاف :

لعل من أهم عوامل ازدهار المدن ظهور مؤسسات الأوقاف التي كان لها دور هام في العناية بالمدن وتطويرها ، وهي مؤسسات أهلية أو مدنية خالصة .

من أمثلة هذه الأوقاف : وقف ضخم في « بريزرن » لأحد الأغنياء المسلمين هو « محمد خير الدين أوغلي » أنشأه سنة ١٥٣٠م ، مشتملاً على ١١٧ محلاً تجارياً وصناعياً ، بالإضافة إلى ستة مطاحن لدقيق القمح . احتوت هذه المحلات على ورش صناعية بلغ عددها خمسة وأربعين ورْشة لأنواع الصناعات اليدوية المختلفة ، مثل صناعة دبغ الجلود ، والمصنوعات الجلدية وغزل الحرير الطبيعي ، والحدادة ، وصناعة الأسلحة لخدمة الأغراض الحربية للدولة ، وكان البارود يصنع في « بريشتينا » .. وجاء العثمانيون بصناعة الصابون ، وتخصَّص المسيحيون في صناعات هامة منها صياغة الفضة ودبغ الجلود ، وصناعة السروج وغيرها ، وكانت صناعة السروج ذات أهمية كبيرة للفرسان المقاتلين وراكبي الجياد .

كان لأصحاب هذه الحرف والصناعات جمعيات تشبه النقابات المهنية ، تتألف كل نقابة من أصحاب صنعة معينة تنظم شئون هذه الصنعة وشئون أعضائها . وقد كانت هناك علاقة قوية بين التوسع في المدن وأسلوب الحياة فيها ، وبين انتشار الإسلام ، فمعظم أعضاء الطبقة العسكرية كانوا يعيشون في المدن وهم مسلمون على الأغلب ، وكانت مؤسسات الأوقاف مقرها الرئيسي في المدن .

ولِعِظَمِ مكانة الأوقاف عند المسلمين خصص لها الأغنياء اقطاعات كبيرة من الأرض والمباني للإنفاق عليها وعلى مشروعاتها الخيرية ، وكانت الأرض والعقارات محصّنة بالقانون الذي يمنع الاستيلاء عليها أو مصادرتها ، كما كانت معفاة من الضرائب . وكان ريعها يُنْفَق على بناء المساجد والمدارس وصيانتها وإدارتها ، كما يُنْفَق منها على طهي الطعام للفقراء ، وعلى الحمامات العامة ، وصيانة القناطر وخانات إيواء الضيوف (فنادق مجانية) .

انتشار الإسلام وأوضاع المسيحيين

لعل من أهم ما عُنيت به مؤسسة الأوقاف إنشاء المدارس والمكتبات الملحقة بالمساجد . ومن خلال المدارس والمكتبات أصبح المسلمون في « كوسوفا » على اتصال بالإنتاج الثقافي التركي والإسلامي بصفة عامة ، واستطاعت « كوسوفا » أن تخرّج كُتَّاباً مشهورين في هذه المرحلة المبكرة من تطورها .

من بين العلاقات الأخرى الهامة التي ربطت بين الإسلام والحياة في المدن علاقة نقابات التجار والصناع مع فرق الدراويش المتصوفة ، فقد وُجد المتصوفة في كوسوفا منذ القرن الأول للعثمانيين فيها .

ونستطيع أن نقول : إن نمو الإسلام في « كوسوفا » خلال الفترة الأولى للحكم العثماني كان ظاهرة مدنية تقريباً ، وأن انتشار الإسلام في القرى كان بطيئاً ، ويعزى انتشار الإسلام السريع في المدن إلى التغيير الاجتماعي الذي أحدثه العثمانيون بها وإلى النقلة الحضارية التي شهدتها شبكة المدن الواسعة التي تميزت بها كوسوفا عن كثير من البلاد المجاورة ، ومن ثم انتقل الإسلام تلقائياً نتيجة الاحتكاك الحضاري ، فلم يكن العثمانيون يخططون للتبشير الإسلامي ، ولا كانت لديهم مناهج ولا مبشرين أو دعاة مُعدّين للقيام بهذه الرسالة ، ولا يمكن مقارنة هذا الموقف بموقف الاستعمار الغربي الذي غزا آسيا وأفريقيا وحطم ثقافات المجتمعات وجلب معه مبشرين مدربين لخدمة الاستعمار .

أجهد بعض المؤرخين أنفسهم بحثاً عن أسباب ملفقة للانتشار الواسع للإسلام في كوسوفا ، فتحدثوا عن الاستيطان التركي ، وعن فرض الإسلام قهراً على

المسيحيين ، وعن محاولة المسيحيين بإسلامهم التخلص من ضريبة الجزية ، وعن القيود الأخرى المفروضة على المسيحيين وعن تحويل كنائسهم إلى مساجد .

هذه المزاعم كلها لا دليل على صحتها وقد فنّدها كُتّاب أوروبيون منصفون أمثال « توماس أرنولد » ، و « هارى ثيرلويل نوريس » ، و « نويل مالكوم » ، وقد أوجزنا آراءهم في كتابنا عن البوسنة .

ونحاول فيما يلي تلخيص ردّ « نويل مالكوم » على هذه المزاعم ـ من واقع كتاباته الحديثة ـ حيث يقول :

« من الواضح لدينا أن انتشار الإسلام في كوسوفا لم يأت عن طريق الاستيطان المكثّف لمسلمين أتراك جاءوا من خارج المنطقة كما يزعم البعض ، فقد كان عدد الفرسان « السباهى » الذين جاءوا مع الفتح العثماني قلة محدودة لا يزيد عن بضعة مئات ، والذين استوطنوا كوسوفا من الإداريين الأتراك كانوا عدداً هزيلاً يمكن التغاضي عنه ، ومن ثم فالغالبية الساحقة من مسلمي كوسوفا كانت نتيجة تحول السكان المسيحيين أنفسهم إلى الإسلام ، وتكشف سجلات الضرائب العثمانية هذه الحقيقة بلا لبْس .



نويل مالكوم

أما إجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام فلم يحدث ولا دليل عليه ، ولم يكن جزءً من سياسة الأتراك العثمانيين في كوسوفا ولا في غيرها من بلاد البلقان . حتى الدعوة إلى الإسلام لم يكن لها وجود على الأقل في المرحلة الأولى بعد قدوم العثمانيين ، وحتى بعد ذلك لم يكن هناك دعوة تبشيرية منظمة ، وإنما شاهدنا نوعاً

من الحوارات المهذبة بين بعض رجال الدين المسيحيين والمسلمين .

كذلك فإن القول بأن المسيحيين تركوا دينهم بغية التخلص من الجزية « ضريبة الرؤوس » وهي ضريبة كانت تُجمع فقط من الذكور البالغين المقتدرين مالياً والقادرين على الخدمة العسكرية فكان مقدارها لا يزيد عن خمسين « أُقشة » في السنة كلها ، وهو مبلغ يساوى ثمن رأس غنم واحدة ، وفي مقابل هذه الضريبة كان المسلمون يدفعون الزكاة السنوية على المال وعلى المحاصيل الزراعية التي تنتجها أراضيهم وهي ضريبة لم يكن المسيحيون يدفعونها ، وإذن فالاحتجاج بضريبة الرءوس احتجاج في غير محلّه ، وغير منطقيّ .. هكذا يقول نويل مالكوم ..

ومن ثم نستطيع القول بأنه : لا المصالح الاقتصادية ولا الواجبات الدينية كانت تدفع العثمانيين إلى تحويل رعاياهم المسيحيين إلى الإسلام ، وعندما ارتفعت معدلات الضرائب في القرن السابع عشر الميلادي لم يكن الباعث عليها سوى حاجة الحكومة العثمانية الماسة إلى المال لتنفيذ برنامجها الإصلاحي وليس الرغبة في أسلمة المسيحيين ، خصوصاً وأن عبء هذه الضرائب كان عبئاً مشتركاً بين المسلمين والمسيحيين جميعاً على السواء .

تأتي بعد ذلك بعض الممارسات التي رآها بعض الكُتّاب المسيحيين من قبيل القيود المفروضة على المسيحيين ، ولكنهم في الحقيقة يحكمون بمقاييس وقيم تنتمي إلى العصر الحديث ، ولا يأخذون في اعتبارهم اختلاف الظروف الاجتماعية والسياسية والأمنية التي كانت سائدة في العصور السابقة ، من هذه الممارسات أنه كان محرماً على المسيحيين أن يلبسوا الثياب المخصصة لرجال الدين المسلمين مثلاً ، وألا يحملوا السلاح ، وألا يتعمدوا إهانة العقيدة الدينية الإسلامية أو السعي

لتحويل مسلم عن دينه .

وتلك أمور لا يستطيع عاقل أن يصفها بأنها قيود مفروضة إلا إذا اعتبر القوانين التي تنظم العلاقات الاجتماعية بين الناس قيوداً مفروضة ، كما أنه لا يمكن اعتبارها من الأسباب التي تدفع الناس إلى التخلّي عن دينهم ..

ويؤكّد المؤرّخ توماس هارولد أنه لم يجد دليلاً واحدًا على أن المسلمين قد أجبروا أحدا على اعتناق الإسلام في أي بلد دخلوها رغم كثرة المزاعم المسيحية في هذا المجال .. (اقرأ كتاب الرجل بعنوان « الدعوة إلى الإسلام ») ...

وواقع الأمر أنه لم يكن هناك ما يحول بين المسيحيين أو اليهود في كوسوفا وبين ممارسة حياتهم الدينية بحرية كاملة ، والحقوق والحريات الدينية التي تمّتع بها غير المسلمين تحت الحكم العثماني لم يكن مسموحاً بها في بلاد المسيحيين نفسها ، ومحاكم التفتيش وحروب الإبادة بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس كلها شاهد على ذلك .

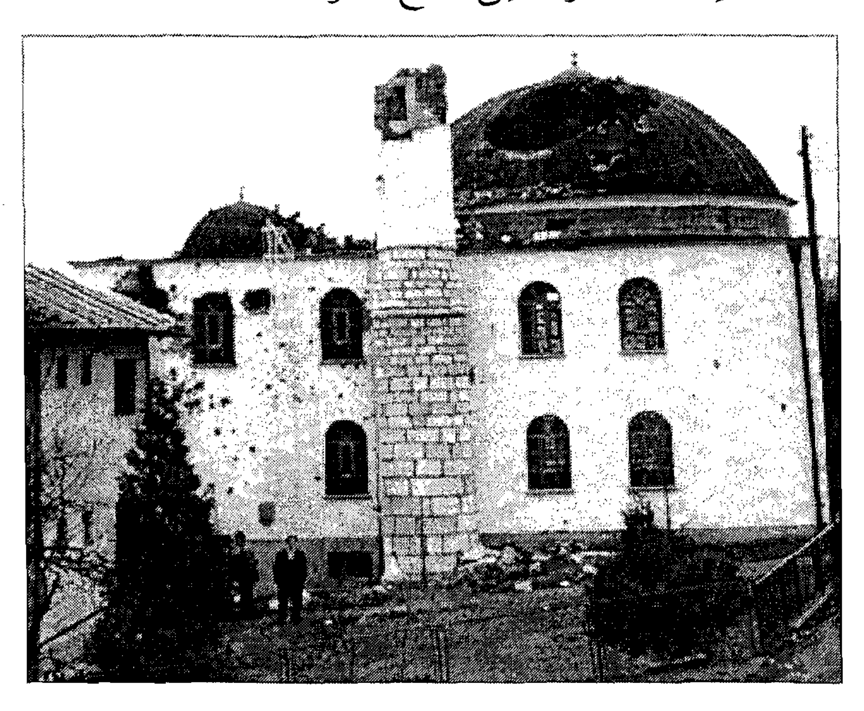
أما ما لقيه المسلمون وما يزالون يلقونه إلى اليوم على يد المسيحيين في البلقان فحدّث عنه ولا حرج ، وليست مجازر المسلمين في البوسنة وكوسوفا ببعيدة عنا .

واتهام العثمانيين بالاستيلاء على الكنائس وتحويلها إلى مساجد مجرد فرية كبيرة لا دليل عليها ، فقد كانت عادة العثمانيين ألا يفعلوا ذلك ، فإذا حدث فإنه يحدث في أضيق الحدود وتحت ظروف خاصة ، فعندما دخل العثمانيون مدينة « نوفو بردو » بعد مقاومة عنيفة استخدم الجنود كنيسة واحدة لصلاتهم ، ولم تكن هذه الكنيسة ملكاً لأهل المدينة بل كانت تابعة لجالية أجنبية « سكسونية » رحلت عن المدينة عند دخول العثمانيين إليها ، وأصبحت الكنيسة مهجورة ، كما حدث

لكنيسة أخرى مثلها في مدينة « بريزرن » .. فلم تكن سياسة العثمانيين الاستيلاء على الكنائس ناهيك عن هدمها . وحتى بعد أن تحولت الأغلبية العظمى من السكان إلى الإسلام في القرن السادس عشر تركت السلطات العثمانية الكنائس كما هي رغم أنها أصبحت مهجورة ، وقامت ببناء مساجد جديدة للمسلمين .

فماذا فعل الصرب الأرثوذكس حديثاً بمساجد المسلمين في البوسنة ؟

كانوا يدكّونها بالمدافع وتأتي « البلدوزارات » في اليوم التالي لتكنس أنقاضها وتسوى بها الأرض ، ومن أبشع الأمثلة على ذلك ما فعله الصرب في مساجد مدينة « بنيالوكا » ، كان بعضها من روائع الفن المعماري العثماني ، هدمها الصرب فلم يتركوا مسجداً واحداً قائماً ، وتحولت مواقعها إلى مواقف للسيارات ، وهكذا تحولت المدينة الإسلامية العريقة إلى مسخ مشوّه .



من صور همجية الصرب وعدوانهم في البوسنة

أما كنائس المسيحيين في « كوسوفا » فكان العثمانيون يرعوْنها ، ويقوم أصحابها بصيانتها والتوسع فيها ، وكانت السلطات العثمانية تمنحهم الإذن بالتوسع ، مثال ذلك : « بطرياركية الأرثوذكس » التي أُعِيد بناؤها كما أُعِيد بناء الكنائس والأديرة من حولها في منطقة « بيتش » ومنحتها السلطات أراضي إضافية للتوسع في البناء كما منحتها إعفاءً من جميع ضرائب الدولة .

ووصف الرّحالة الأوروبيون الحياة في الأديرة الأرثوذكسية الصربية خلال القرن السادس عشر وصفاً إيجابياً من كل الوجوه ، حيث كتب الموفد الإيطالي « بيجا فيتا » تعليقاً على زيارته إلى « رافانيتشا » سنة ١٥٦٨م فقال : « **إنَّ الرهبان يحيون حياة حرة دون أن يمسهم العثمانيون بسوء ودون أي تدخل في شئونهم** » .

أما الرحالة الفرنسي « باليرن » بمناسبة زيارته إلى « ميلشيفا » الواقعة في « سنجق نوفى بازار » فقد عبَّر عن انبهاره بجمال دير « كالود بيرس » وما يتمتع به من ثراء وزخرفة وما رأى فيه من تحف وحليات فضية ، وأدهشه أن الدير يستضيف الناس من جميع الشعوب فيضفي عليهم من كرمه وسخائه طوال إقامتهم فيه .. لم يهدم المسلمون العثمانيون الكنائس ولا حوّلوها إلى إسطبلات أو مخازن لعلف البهائم كما فعل الصّرب بمساجد « بلجراد » ، وكما فعل الصّهاينة فى مساجد المسلمين فى فلسطين المحتلّة .. هؤلاء يعبّرون ـ بتلْقائية ـ عن نوع حضارتهم .. كما يعبّر المسلمون العثمانيون ـ بتلْقائية أيضًا ـ عن سماحة حضارتهم وقدرة هذه الحضارة العبقرية على استيعاب الآخرين المختلفين فى الدين والعرق واللغة .

* * *

الصقالبة (الصِّرب) في الحضارة الإسلامية

الامتزاج الحضاري وتقبُّل الآخرين كان سمة من أبرز السمات في الحضارة الإسلامية منذ انطلاقها ، وهو أمر لم يكتسبه المسلمون في تعاملهم مع غيرهم من شعوب الأرض ، أو بدوافع من المصلحة ، وإنما كان المسلمون يطبقون مبادئ راسخة في دينهم تعبر عنها نصوص قرآنية صريحة ، وتساندها تقاليد ثابتة في السنّة النبوية قولاً وعملاً ، حتى أن من أراد اختراق هذه المبادئ كان عليه أن يسلك أوعر المسالك في التبرير ، وأن يتعسف في التأويل اعتسافاً ، ثم يبقى عمله بعد هذا كله محكوماً عليه بالشطط والانحراف .

إنه إذن اتجاه عميق الجذور في الحضارة الإسلامية ، وجد طريقه بشكل أو آخر في صميم البنية الإمبراطورية للدولة العثمانية : التسامح مع المخالفين في الدين والعرق والثقافة بدلاً من العسف بهم والقضاء عليهم وعلى ثقافاتهم كما فعل الغرب بالشعوب الأخرى ، والامتزاج الحضاري بدلاً من الصراع الحضاري الذي بشّر به اليوم « صامويل هانتنجتون » استمراراً لدور أسلافه في التحريض وضرب القوى المختلفة بعضها ببعض . هذه الروح الإسلامية التي ظهرت آثارها في البلقان مع امتداد السيادة العثمانية إليها كانت نموذجاً له سوابق أخرى ربما أعمق دلالة وأقوى أثراً .

وإذا تحدَّثنا عن هذه السوابق فيما يتعلق بالسلافيين من أبناء البلقان فعلينا أن نستحضر في أذهاننا الاسم الذي عُرفوا به في إطار الحضارة الإسلامية وهو « الصقالبة » ، وإذا خصصنا منهم فئة بعينها فأولئك هم « البشناق » أو البوسنويون Bosniac كما عرفناه في وقت متأخر نسبياً مع ظهور النفوذ العثماني في البوسنة .

كان حضور الصقالبة وتأثيرهم على أشده في الدولة الأموية بالأندلس وفي توابع هذه الدولة في البحر المتوسط وجنوب إيطاليا .

وكان للدولة الإسلامية في الأندلس صلات قوية بشعوب البلقان الذين عرفوا الإسلام والمسلمين قبل ظهور الدولة العثمانية إلى الوجود ، ولا ينبغي أن نغفل هنا أن الاتصال شيء والدخول في الإسلام شيء آخر ، ولكن الاتصال في حد ذاته يبقى على أهميته ، لأنه يسمح بوجود بذور كامنة في التربة في انتظار هطول المطر ، وقد جاء المطر غزيرًا عندما امتدّ الفتح العثمانيّ إلى قلب البلقان .



مُحَارِبون صقالبة مع المسلمين :

ولم يكن هذا أول احتكاك للسلافيين أو الصقالبة بالدولة الإسلامية ، فقد وُجدت مجموعات من الصقالبة المقاتلين في الدولة الأموية المشرقية في أواخر

القرن السابع الميلادي ، كانوا يحاربون الدولة البيزنطية في صفوف المسلمين .

والعجيب في الأمر أن هؤلاء الصقالبة كانت الدولة البيزنطية قد جاءت بهم لحرب المسلمين والعرب فانتقلوا هم إلى الحرب في صفوف المسلمين ضد الدولة البيزنطية . وبعد أن امتد سلطان المسلمين إلى معظم المناطق الجنوبية في إيطاليا تمكنوا من إرسال غزواتهم إلى ساحل الإدرياتيك الشرقي ، وظهرت السفن العربية أمام « بُودُوا » و « ريزان » و « كوتور » وامتد نشاطهم التجاري إلى « راجوسا » و « سبليت » و « تروجير » .

وفي منتصف القرن التاسع عقد المسلمون حلفاً مع قبيلة « نريتلياني » في وادي « نيريتفا » بالهرسك ـ ولم تكن هذه القبيلة قد اعتنقت المسيحية ـ فقبلت التحالف مع المسلمين في محاولة مشتركة ضد دولة البندقية .

الصقالبة في الأندلس :

وفي الأندلس وُجدت أعداد كبيرة من الصقالبة يلعبون دوراً هاماً في الحياة الإسلامية .. كما فعلوا بعد ذلك فى حياة الدولة الفاطمية بشمال أفريقيا .. كان حضور الصقالبة قوياً وكان هناك حُرّاس أشدّاء منهم في بلاط أمراء المسلمين .. وفي عهد الحاكم بأمر اللّه الفاطمي بمصر كان قائد حرس الخليفة صقلبى يسمى « أبو الفضل ريدان » .

ومن المعروف أن الصقالبة كانوا يشغلون مراكز هامة في الدولة وفي الجيش طوال حكم العرب للأندلس ، وكانوا يشكلون الحرس الخاص للخليفة في قرطبة ، وقد بلغ عدد هؤلاء الحراس في وقت من الأوقات ١٣٧٥٠ فرداً .

وكان من الصقالبة رجال أدب وعلم وثقافة تركوا بصمات واضحة في الحياة العربية الأسبانية .. من هؤلاء « الخادم الصقلبي » الأديب الذي ظهر إبّان حُكم الخليفة هشام الثاني (٩٧٦ - ١٠١٣) ، وفي نفس الفترة ظهر كاتب آخر هو « حبيب الصقلبي » الذي دافع عن أبناء جلدته وأبرز إنتاجهم الفكري في مؤلف بعنوان « كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة » .

لم تنقطع الاتصالات بين كُرْوات « دلماشيا » وبين المسلمين المتمركزين في جنوب إيطاليا حتى بعد القرن الرابع عشر الميلادي عندما جاء الأسقف الكاثوليكي « أوغسطين كوزوتريتش » لتنصير الكروات فنجح في ذلك نجاحاً محدوداً ، ولكن يؤكد « نوريس » أن كثيراً من الكروات دخلوا في الإسلام .

وطبقاً لما ذكره « ستانكو جولْدشْكو » فإن اعتناق الكروات للإسلام حتى قبل سقوط « الهُوم » (الهرسك) في قبضة العثمانيين قد فاق بكثير عدد الكروات الذين اعتنقوا المسيحية على يد المبشرين الكاثوليك ، وقد تابعهم في ذلك البوسنويّون سواء من كان منهم « بوجوميليّاً أو كاثوليكياً » ، كل ذلك حدث قبل أن يمتدّ النفوذ العثماني إلى المنطقة .

ولعل أخطر دور قام به صقْلبي في تاريخ الفاطميين كله كان هو دور « جوهر الصقلّي » الذي ينحدر من أصول « دلماشية » ، فقد أسلم وأصبح قائد الفاطميين الذي فتح لهم مصر وبني مدينة القاهرة كما أقام أقدم جامعة بها وهي الجامع الأزهر ، وبطبيعة الحال كان إسلام هذا القائد الخطير الشأن قبل ظهور الأتراك العثمانيين في التاريخ .

* * *

راجوسا والعلاقات التجارية

كانت « راجوسا » تتمتع بأكبر نشاط تجاري مع الخلافة الأموية في الأندلس ، وكانت مصدراً للخشب والحديد ، وكان المسلمون يستخدمون هذه المواد فى الصناعة والبناء على نطاق واسع في المشرق العربي و في الأندلس ، حيث قايضوا عليه بالتوابل النفيسة .. وكما كانت التوابل المنقولة عبر الإسكندرية وسوريا ذات أهمية قصوى لتجار « راجوسا » كان الرصاص من بين السلع الهامة التي تلحّ في طلبها الموانئ الإسلامية في الشرق .. وكان يستخرج بصفة أساسية من مناجم البوسنة ، ومن أماكن أخرى في أعماق شبه جزيرة البلقان . وعلى الرغم من أن تجار البندقية ـ كما هو مشهور ـ كانوا يلعبون دوراً هاماً في هذه التجارة إلا أن « راجوسا » كانت هي المهيمنة عليها ، وقد أسهم في تنشيط تجارة « راجوسا » إستثناءات منحها البابا لأهل راجوسا أتاحت لهم المحافظة على العلاقات التجارية مع المسلمين رغم أن الكنيسة الكاثوليكية كانت تعتبر المسلمين من الكفار .

في إطار العلاقات الدبلوماسية مع المشرق الإسلامي كان أسطول « راجوسا » المكوّن من ثلاثة آلاف سفينة يحمل تجار راجوسا ويتحرك بحرية تامة على سواحل البحر المتوسط عندما كان هذا البحر يعتبر بحيرة إسلامية خاضعة لهيمنة المسلمين دون منافس . وكان لتجار « راجوسا » مستعمرات صغيرة في البلقان العثمانية وفي شمال أفريقيا بما في ذلك فاسْ ومراكش ، وعاش كثير من الكروات في مصر إبّان عصر المماليك وجاء معهم تجار من دلماشيا والنمسا وسلوفينيا .

وسمح السلطان الأشرف قنصوه الغوري لتجار « راجوسا » بمواصلة تجارتهم داخل مصر وليس في الإسكندرية وحدها بل في السويس وجنوب سيناء بينما كانت

سفنهم تنتظر على الشاطئ في انتظار وصول شحنات التوابل من شرق الهند .

ولعل أقدم وثيقة عربية في هذا السياق التاريخي في العلاقات السلمية الحضارية بين المسلمين وبين أوروبا وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ١٥١٩ ، وُجدت في أرشيف مدينة « دبروفنيك » (راجوسا سابقاً) .. تحتوى هذه الوثيقة على التماس من قنصل « راجوسا » في الإسكندرية إلى أول حاكم عثماني بها هو « خير بك » يطلب فيه القنصل رفع ضريبة كان قاضي المدينة قد حكم بها على أحد رعايا القنصل ، مذكّراً إياه بأن هذه الضريبة لم تكن تُحصّل في عهد السلطان الأشرف قنصوه الغوري ، وذلك ضمن امتيازات أخرى كان يتمتع بها رعايا « راجوسا » ، فاستجاب له حاكم الإسكندرية وألغى الضريبة . هكذا كان المسلمون يحرصون على العهود والوعود والمواثيق حتى وهم في أضعف حالاتهم الحضارية ورغم انتقال السلطة من عهد المماليك إلى عهد العثمانيين .. كانوا يحافظون على عهودهم للآخرين . ثم أنظر الآن وفي إطار الحضارة الغربية : كم من الوعود والعهود قطعتها أمريكا وإسرائيل على نفسيهما .. ؟! وكم منها تحقق في الواقع .. ؟ لا شئ .. لقد نكصت إسرائيل كما نكصت أمريكا عن كل وعودها وعهودها للمسلمين في كل مكان وعلى الأخص في فلسطين . أقامت أمريكا سياستها الخارجية على سلسلة من الأكاذيب .. ولم تعتذر لأحد عندما انكشفت أكاذيبها .. ولم تعبأ حتى بشعبها أن تعتذر إليه .. فالكل يعلم ويؤمن ـ في إطار الحضارة الغربية ـ أن السياسة عندهم مصالح وأنه لا أخلاق في السياسة ولا دين .. وليست الحضارة الإسلامية من هذا النوع . وأحسب أن قادة المسلمين وكُتّابهم الكبار في العصر الحديث قد اختاروا الأسوأ عندما رددوا مقولة أنه : (**لا دين فى السياسة ولا سياسة في الدين**) ...

إسلام البوسنة

من أبرز الظواهر في تاريخ البوسنة بعد الغزو العثماني اعتناق سكانها للدين الإسلامي بأعداد كثيفة كانت دائماً مثار دهشة وموضع كتابات مستفيضة ؛ حاول الباحثون فيها إلقاء الضوء على هذا التحول المثير وتفسيره والوصول إلى الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة . ولا تزال كتابات المؤرخين المحدثين ـ على اختلاف نزعاتهم ـ يتردد فيها نظريات وأحياناً قصص وأساطير حول هذه الظاهرة ، فالأمر كان ولا يزال موضع جدل كبير .

فهناك نظرية شائعة تذهب إلى أن طبيعة الديانة البوجوميلية التي سادت في البوسنة قبل العثمانيين هي التي أدت إلى اعتناق سكان البوسنة أفواجاً للإسلام ، يرجّح هذه النظرية كُتّاب كثيرون من أشهرهم « توماس أرنولد » .

ويرى آخرون أن البوسنويين دخلوا الإسلام تحت تأثير عاملين : القهر من جانب السلطات العثمانية من ناحية ، والمكاسب المادية التي كانوا يلمّحون بها لمن يعتنق الإسلام . ومصدر هذا الرأي عدد من القسس الأرثوذكس والكاثوليك ، الذين رأوا الناس ينفضّون عن كنائسهم ويتجهون إلى الدين الجديد فحملهم الهوى ، أو دفعتهم الغيرة إلى موقف لا يُحسدون عليه .

ويعارض كل من « هـ . ت . نوريس » ، و « نويل مالكوم » النظريتين حيث يرفضان نظرية القهر والإجبار رفضاً كاملاً ، ويختلفان مع نظرية توماس أرنولد في اتجاهها العام .

فنحن أمام ثلاثة اتجاهات من الرأي يمثلها ثلاثة من كبار المؤرخين والكتاب البريطانيين لهم وزنهم في مجال تخصصاتهم ، ولهم إنجازاتهم العلمية واجتهاداتهم

الجادة ، ولهم مناهجهم في البحث والرصد والتفسير ، وهم جميعاً يشتركون في إجادتهم لعدد من اللغات أتاحت لهم سعة الإطلاع ، كما أتاحت لهم بصفة خاصة الإستناد في كتاباتهم إلى المصادر الأولية بلغاتها الأصلية .

* يأتي على رأس هؤلاء الثلاثة « **توماس أرنولد** » Tomas Arnold وهو عالم وباحث مقتدر يجيد اللغة العربية والفارسية والأردية إلى جانب إلمامه باللغات الأوروبية ، كان أستاذاً بجامعة لندن في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، زار مصر سنة ١٩٣٠ ، وحاضر فى الجامعة المصرية .

ومن أهم مؤلفاته وأشهرها كتابه « الدعوة إلى الإسلام » Preaching of Islam يكشف فيه عن حقيقة الانتشار السلمي للإسلام في كل بلاد العالم ، وهى حجة دامغة للخرافة الشائعة في الغرب عن فرض الإسلام على العالم بقوة السلاح .

* ويأتي من جامعة لندن أيضًا : « **هـ.ت. نوريس** » ، كان أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية حتى سنة ١٩٩١ ، يجيد عدة لغات من بينها لغة البوسنة (الصربو - كرواتية) ، تعدّدت أسفاره وزياراته إلى منطقة البلقان من أجل الدراسة والبحث ، وله مؤلفات عديدة عن تاريخ المسلمين من بينها كتاب « المجتمعات المسلمة في شرق أوروبا » ، وكتاب آخر أكثر أهمية بالنسبة لموضوعنا هو كتاب « الإسلام في البلقان » .

* أما « **نويل مالكوم** » فقد تخرّج من جامعة كمبريدج وحصل على الدكتوراه في التاريخ وعمل بالجامعة في الفترة من سنة ١٩٨١ - ١٩٨٨م . ثم جذبته الصحافة فشغل وظيفة المحرر الخارجي لصحيفة « إسبكتاتور » .. ثم كاتباً ومحللاً سياسياً في صحيفة الديلي تليجراف .

البوجوميليّة :

يرجّح « توماس أرنولد » نظرية انتشار العقيدة الإسلامية في البوسنة نتيجة للتشابه الكبير بين العقيدة البوجوميلية والإسلام فيما يتعلق بموقفهما من المسيحية . ويفصّل الموقف الديني للبوجوميليين قائلاً : « لقد رفضوا عبادة مريم العذراء ، ورفضوا فكرة التعميد ، ورفضوا جميع الصور الكهنوتية ، وكانوا يكرهون الصليب كرمز ديني .. ويرون أنه من الوثنية أن ينحني الإنسان أو يركع أمام التماثيل الدينية وصور القديسين أو آثارهم .. وكانت أماكن عبادتهم بسيطة جداً وخالية من الزخارف بعكس كنائس الرومان الكاثوليك الحافلة بالزخارف .. وكانوا يشتركون مع المحمديين (يقصد المسلمين) في كراهية الأجراس ويطلقون عليها نفير الشيطان .. وكانوا يعتقدون أن المسيح لم يُصلب وأنّ شبحاً آخر حل محلّه ، وفي هذا يتفقون تماماً مع ما ورد بشأن صلب المسيح في القرآن » .

ويضيف « أرنولد » أن تحريمهم للخمر .. والتقشف الذي ساد حياتهم العامة ، ومسلكهم الجاد في الحياة يوثّق عري صلاتهم بالإسلام .

ويؤكد بعض المؤرخين أنهم كانوا يصلّون في النهار خمس مرات وفي الليل خمس مرات .. ويكررون الصلاة ساجدين .

ويعلق « أرنولد » على ذلك قائلاً : « **بهذا وجد** « **البوجوميليون** » **أن دخولهم في الإسلام لا يستلزم منهم إلا تغييراً طفيفاً لكي يلتحقوا بالمسجد .. وكان من السهل إقناعهم بالتخلي عن بعض التقاليد الأخرى التي تُخالف الإسلام** » .

ويثبت أرنولد أن « البوجوميليين » تعرّضوا لاضطهاد مستمر بسبب عقيدتهم من

قبل الكنيسة الكاثوليكية « فكان البابوات يشجعون على شن حملات صليبية عليهم من وقت لآخر .. »

يطلعنا « أرنولد » على رسالة كتبها البابا جون الثاني عشر إلى ملك البوسنة (الكاثوليكي) يقول فيها : « إلى ابننا الحبيب الرجل النبيل « ستيفن » أمير بوسنيا ، نعلم بأنك ابن بار للكنيسة . ولذلك فإننا نكلّفك بالقضاء على الهراطقة في منطقتك .. وأن تقدم كل التسهيلات والمساعدات لمفتشنا « فابيان » ، ولما كان عدد كبير من الهراطقة ـ من أنحاء وجهات شتى ـ قد تجمعوا في هذه المنطقة آملين أن ينشروا أخطاءهم الفاحشة وينعموا هناك بالسلام .. فإن هؤلاء الهراطقة قد تلبَّسوا بمكر الشيطان وتسلحوا بسمومهم وزيفهم يفسدون بها عقول الكاثوليك بالكلام المعسول .. إن كلامهم يزحف كالسرطان .. وهم يتظاهرون بالتواضع والمذلة ولكنهم ذئاب وسط حملان المسيح البسطاء » .

وهكذا انطلق ملك البوسنة وقسس محاكم التفتيش في « البوجوميليين » قتلاً واضطهاداً ، ففر منهم أربعمائة إلى البلاد المجاورة والذين لم يتمكنوا من الفرار أرسلوا مكبلين بالسلاسل إلى روما .

ولكن رغم كل اضطهاد بقيت « البوجوميلية » حية حتى جاء السلطان محمد الثاني لفتح البوسنة سنة ١٤٦٣ ، وهناك وجد ملك البوسنة الكاثوليكي نفسه معزولاً عن رعيته التي هجرته .. وقام « البوجوميليون » بتسليم مفاتيح القلاع ومفاتيح القصر الملكي إلى العثمانيين وفي خلال أسبوع واحد سقطت في يد السلطان الفاتح سبعون مدينة بوسنوية .

وفي ظل الهيمنة العثمانية احتفظ البوسنويون بلغتهم وقوميتهم وممتلكاتهم

وبقى كثير منهم يحملون أسماءهم السلافية دون تغيير .. ولم يجبرهم الفاتحون على ترك دينهم .

يتفق « هـ.ت. نوريس » مع « توماس أرنولد » في حقيقة أن العثمانيين لم يستخدموا أي وسيلة لإجبار سكان البوسنة على اعتناق الإسلام ، ولكنه يعارض فكرة أن البوجوميلية بطبيعتها هي التي أدت إلى اعتناق البوسنويين للإسلام . ويرى أن ساحل الإدرياتيك كان مفتوحاً للتأثيرات الإسلامية لعدة قرون وأن المسألة كانت مسألة وقت حتى ينفذ الإسلام إلى المنطقة الجبلية التي يسكنها البوسنويون خلف هذا الساحل . فالإسلام لم يكن مجهولاً بالنسبة للبوسنويين ، وكان هناك مسجد في « أوستيكولينا » قائماً قبل الغزو العثماني بزمن طويل .

يرى « نوريس » أن هؤلاء البوسنويين البوجوميليين لم يستطيعوا أن يتأقلموا مع النظام الإقطاعي المستبد الذي كان سائداً في المنطقة بأسلوبه المركزي وبما يفرضه من عبودية ومذلة وما ينطوي عليه من مادية مفرطة ، بينما يميل البوسنويون بحكم الفطرة والطبع إلى الحرية والزهد والتمرد على القهر والتحكم .

ويخلص « نوريس » إلى نتيجته أن دخول العثمانيين وتحطيمهم لهذا النظام الإقطاعي هو الذي مهد الطريق أمام انتشار الإسلام في البلقان كله لا في البوسنة وحدها . وإذن فالحياة الزراعية المتجهمة والنظام الزراعي المستبد في البلقان والحاجة إلى التخلص منهما هو الذي فتح الطريق للعقيدة الإسلامية وتبنى الثقافة الإسلامية .

وهكذا يكشف لنا « نوريس » عن سبب هام من أسباب الاستقبال الحار للعقيدة الإسلامية من جانب البوسنويين . ولكنه وهو يتحدث عن الفطرة والطبع يقترب ـ لا

شعورياً ـ إلى رأي « توماس أرنولد » في أن التشابه بين البوجوميلية والعقيدة الإسلامية هو الذي أدى في النهاية إلى اعتناق الإسلام ؛ ذلك لأن الطباع والأخلاق والقيم لابد أن تكون قد نشأت وترعرعت أحقاباً في إطار عقيدة روحية ذات خصائص معينة ، كانت هي البوجوميلية ، أو إسلاما انقطعت صلته زمنا طويلا بمصادره الأصلية فاكتسب سمات محلية عند البوسنويين ، ومن ثم لا نرى خلافاً جوهرياً في هذه النقطة بين رأي كل من « نوريس وتوماس أرنولد » .

ويجب أن نلاحظ هنا أنه لا يوجد خلاف بين كل من « نويل مالكوم » أو « توماس أرنولد » أو « نوريس » في نقطة جوهرية وهي : أن انتشار الإسلام في البوسنة لم يكن نتيجة لإجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام ، وأن الدولة العثمانية لم يكن في سياستها أي خطط لتحويل الناس عن دينهم إلى الإسلام ، أو حتى جعلهم يلتزمون بمسلك المسلمين ، وإنما كانت الدولة معينة في المقام الأول ببقاء البلاد تحت السلطة العثمانية ، فما دامت هذه البلاد توفر المال والرجال لسد احتياجات الإمبراطورية فإن بقية الأمور الحياتية متروكة للشعوب ولا تتدخل الدولة فيها .

وهكذا تُرك المسيحيون واليهود جميعاً يمارسون دياناتهم بحرية كاملة ، وكان من حقوقهم المقررة أن يطبقوا قوانين ملّتهم على رعاياهم وفي محاكمهم الخاصة فيما عرف باسم « النظام الملّي » .

* * *

أسباب انتشار الإسلام في نظر « نويل مالكوم »

تبقى مسألة التحول الكثيف للبوسنويين إلى الإسلام موضع تساؤل وخلاف . فمالكوم يختلف في هذه النقطة مع « توماس أرنولد » كما يختلف مع كثير من الكتاب والمؤرخين الذين خاضوا في الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة ، بل إنه يصف بعض هذه الكتابات بأنها من قبيل الأساطير .

ويعتمد « مالكوم » في رأيه على الأرقام الإحصائية التي تمدنا بها التحليلات الدقيقة لسجلات الإدارة العثمانية التي أتيحت للدارسين في الأربعينات من القرن العشرين .

ويُعَلِّق « مالكوم » على ذلك بقوله : « لقد بدأت الصورة تتضح لنا أكثر فأكثر حتى أن كثيراً من الحكايات والأساطير التاريخية أخذت في التلاشي والذوبان أمام الحقائق الرقمية المدوّنة . يرى مالكوم أن الدفاتر العثمانية تعتبر من أهم مصادر المعلومات التاريخية لأنها تحتوى على تسجيلات دقيقة للضرائب وعنيت أكبر عناية بتسجيل ملكية الأراضي والعقارات .. وصنفت الناس حسب مللهم (دياناتهم) ، ومن هذه الدفاتر أمكن رسم صورة مفصلة عن حركة الإسلام في البوسنة .. أما في « الهرسك » فقد كتب أحد الرهبان الأرثوذكس عام ١٥٠٩م مشيراً إلى أن كثيراً من الأرثوذكس اعتنقوا الإسلام تطوّعاً (يقصد بدون إجبار) » .

وفي شمال البوسنة وشرقها يلاحظ « مالكوم » أن تقدم الإسلام كان بطيئاً حتى تم تحرير هذه المناطق من السيطرة المجرية .. عندئذ تسارعت خطى الإسلام فيها ابتداءً من عشرينات القرن السادس عشر ..

يقول مالكوم : « المهم أن عملية اكتساب البوسنة للإسلام حتى أصبح المسلمون يشكّلون الأغلبية الساحقة قد أخذت فترة طويلة تبلغ مائة وخمسين عاماً » .. ثم ينتقل إلى استخلاص بعض النتائج الضرورية ترتيباً على هذه الحقائق التي كشف عنها ودعمها بالأرقام الموثقة في أدق سجلات الدولة العثمانية ..

يقول « مالكوم » : « لقد أصبح الآن من الممكن استبعاد كثير من الحكايات والتفسيرات الخاطئة التي دارت حول أسلمة البوسنة » ..

أولاً : حكاية أنه كان هناك عملية استيطان واسعة النطاق من جانب الأتراك العثمانيين أو من خارج البوسنة بصفة عامة هذه الحكاية لا توجد أي دلائل تاريخية تدعمها ، فقد استوطن الأتراك في مناطق كثيرة في البلقان إلا أن هذه السياسة بالذات لمْ تكن تُتّبع في البوسنة ، كما تؤكد ذلك سجلات الضرائب العثمانية ..

ويبدو أن الذين زاروا البوسنة أيام العثمانيين سمعوا من أهلها يصفون أنفسهم بأنهم عثمانيون على اعتبار أنهم مواطنون أو رعايا للدولة العثمانية لا أتراكاً بالمعنىٰ الحرفي لهذه الكلمة . ولعل كثيراً من التجار السّلاف جاءوا إلى البوسنة من مناطق أخرى في البلقان ولكنهم لم يكونوا أتراكاً بل من السلاف المسلمين ..

ثانياً : إجبار المسيحيين على اعتناق الإسلام بعد الغزو العثماني هي فكرة زائفة زيفاً مبيناً ، فعملية التحول للإسلام كما عرضها مالكوم فيما سبق كانت عملية بطيئة استغرقت أجيالاً كثيرة ، وليس لدينا شهود عيان يوضّحون لنا كيف ولماذا أسلم الناس في البوسنة .. اللهم إلا تعليقات ذلك الراهب الذي قال : إن اعتناق الإسلام كان اختيارياً تطوعياً ..

وتكشف لنا الدفاتر العثمانية أنه كان من الطبيعي والشائع أن يسلم بعض الأفراد

ويحملون أسماء مسلمة ومع ذلك يعيشون مع أسرهم المسيحية في بيت واحد فلا يفارقونها .. وهذا دليل تسامح ورغبة المسلمين فى العيش بسلام مع الآخرين المختلفين معهم فى الدين .

كانت الكنيسة الأرثوذكسية مؤسسة محترمة ومعترف بها بل وموضع عناية من السلطة العثمانية في أنحاء الدولة ، وبالمثل مُنحت الكنيسة الكاثوليكية كل مقومات الوضع القانوني لمزاولة نشاطها ، إلا أن السلطات كانت تنظر إليها بعين الشك نتيجة لارتباطها بالإمبراطورية المجرية ولمسلك قسسها المريب .

ويكشف « مالكوم » عن الأسباب الخفية وراء بعض التقارير المزيفة عن سوء معاملة المسيحيين في البوسنة من جانب السلطات العثمانية ، وعن رغبة الذين أسلموا في العودة إلى دينهم .

يقول « مالكوم » أن هذه التقارير كُتبت خصّيصاً لبعض البلاد الخارجية كالنمسا لتحريضها على غزو البوسنة حيث صوروا لها أنه إذا حدث غزو شامل للبوسنة فإن مجموع سكانها سوف يرحّبون بهذا الغزو ، وبالفعل قامت النمسا بالمحاولة سنة ١٦٩٧ ، ولكنها أصيبت بخيبة أمل لأنها لم تجد من يرحب بها من سكان البوسنة .. فلو كان صحيحاً أن البوسنويين قد أُجبروا على اعتناق الإسلام قهراً لتغير موقفهم من الغزو النمساوي ، ولكن الإجبار لم يحدث في تاريخ البوسنة كله ولم يكن جزءً من سياسة الدولة العثمانية .

يقول « مالكوم » : « لقد عانت الكنيسة البوسنوية معاناة متصلة من اضطهاد الكاثوليك ، وطبيعي أن يرحب البوسنويون بالأتراك .. ولكن الترحيب بالأتراك شئ واعتناق الإسلام شئ آخر » .

فالأرجح عند « مالكوم » أن الناس الذين التصقوا بدينهم وتشبثوا بعقيدتهم ضد كل أنواع الاضطهاد والتعذيب الكاثوليكي على يد رجال التفتيش ، كان أولى بهم أن يتشبثوا بدينهم بعد رفع الاضطهاد عنهم ، ولكنهم تخلّوا عن البوجوميلية ورحّبوا بالإسلام .

ظاهرة الإقبال الكبير على الإسلام في المجتمعات المسيحية في البلقان لها أبعاد كثيرة ، وقد رصد هذه الظاهرة عدد كبير من شهود العيان الذين زاروا المنطقة وحاولوا تفسيرها فنجحوا أو أخفقوا تبعاً للزاوية التي نظروا منها إلى هذه الظاهرة ..

كان أحد هؤلاء الزوار هو الطبيب الإنجليزي البروتستانتي « جورج ويلر » الذي أصيب بصدمة – على حد قول - عندما زار « كورنثة » في السبعينات من القرن السابع عشر عندما لاحظ الحماس الذي يستقبل به السكان المسيحيون الإسلام فيتركون دينهم وكنيستهم بلا مبالاة .. ويتدفقون يومياً لإعلان إسلامهم أمام الدعاة المسلمين ..

ويستنكر « جورج ويلر » ترك المسيحيين لدينهم من أجل الخرافات التركية (على حد وصفه للإسلام) كلما ألمّت بهم ملمّة أو أصابتهم محنة طفيفة .

هكذا يصف « جورج ويلر » الإسلام بأنه مجرد خرافات تركية .. (ذلك لأنه لم يحاول أن يفهم هذا الدين) .. ثم يعزو الظاهرة إلى عدم توفّر الإرشاد الديني المسيحي وقلّة القسس الأكفاء المخلصين ..

وهو في هذا يتفق جزئياً مع وجهة نظر « نويل مالكوم » .. لقد أثبت الظاهرة ولكنه أخفق في تفسيرها .. لأنه لاحظ الجانب السلبي من هذه الأسباب ولم يبحث الجانب الإيجابي الذي يمثل حقيقة العقيدة الإسلامية وقدرتها على جذب الناس لاتفاقها مع الفطرة السليمة .. ولا يتوقع من زائر عابر إلا أن يأخذ الأمور بظواهرها فيميل مع الهوى متعسفاً في حكمه وهو يجهل طبيعة الإسلام ..

ثالثاً : نظرية اعتناق النبلاء المسيحيين للإسلام بالجملة بغية الاحتفاظ بأملاكهم وامتيازاتهم الإقطاعية . يلفت « مالكوم » النظر إلى أن هناك من المؤرخين من لا يزال يروّج لهذه النظرية إلى اليوم رغم تعارضها مع الدراسات الجادة التي أُجريت في الثلاثينات من القرن العشرين . ومن بين الذين روَّجوا لهذه النظرية في القرن التاسع عشر « إيفان فرانيو يوكيتش » Ivan Franjo Jukeic الذي نشر كتاباً عن تاريخ البوسنة في سنة ١٨٥١م ، هو سلافي من « الفرنسسكان » ، اتهم في كتابه أبناء الطبقة الأرستقراطية البوسنوية بأنهم جاءوا من صلب مسيحيين فاسدين تحولوا إلى الإسلام فقط لكي يحافظوا على ممتلكاتهم وثرواتهم وليتحرّروا من الضرائب والمكوس وليرتعوا في الآثام والرذائل والممارسات الشريرة .. كل ذلك لكي يعيشوا حياة ملكية دون جهد أو تعب ..

ويعلق « مالكوم » على هذا الكلام بأنه وصف لا ينطبق على النبلاء البوسنويين في أي جزء منه .. فقد تحولت أراضيهم إلى ملكية السلطان من الناحية الرسمية على الأقل .. وكان الواحد منهم يقضى معظم العام في خدمة نشطة كضابط مقاتل في الجيش العثماني ويؤدى هذه الخدمة بحماس ملحوظ .

رابعا : خرافة التهرب من دفع الجزية .

يقول « مالكوم » : « يزعم البعض أن انتشار الإسلام في البوسنة يرجع إلى رغبة الناس في تجنّب دفع الجزية المفروضة على غير المسلمين ، وكانت هذه الضريبة السنوية تقدر قيمتها بحسب الوضع الاقتصادي للفرد .. فالثَّرى يدفع أربع دوقيات ومتوسط الحال يدفع دوقيتان فقط .. أما في المستوى الأدنى فيدفع الفرد دوقية واحدة (كانت الدوقية في القرن السادس عشر تشترى عشرين كيلو جراماً من

القمح) .. ربما زادت هذه الضريبة في زمن الحرب ولكن هذه الزيادة كانت تسرى أيضاً على المسلمين .. علاوة على أن المسلمين كانوا يدفعون الزكاة وهي فريضة دينية مُلزمة في الدين الإسلامي . أما بالنسبة للمسيحيين فقد كانوا يُعْفَوْنَ من الخدمة العسكرية في مقابل الجزية ولم يكن المسلمون يتمتعون بهذا الإعفاء » .

وإذن فلم يكن من الضروري التظاهر بالإسلام ، لأن اعتناق الإسلام لن يرفع عن الشخص المتحوِّل دفع ما عليه من زكاة واجبة ، وهى لا تقل عن قيمة الجزية وربما تزيد عليها أضعافًا ، بحسب قيمة ما يمتلكه المسلم .. علاوة على ذلك كان هناك طريق آخر للثراء والنفوذ أمام البوسنويين مع غيرهم من أبناء البلقان ؛ وذلك بالالتحاق في فرق الانكشارية العثمانية ، وفي الخدمة المدنية للإمبراطورية ؛ فقد كان كل ما يشترط عليهم أن يبقوا عَزّاباً لفترة محدودة من الزمن ، فإذا وصلوا مرحلة معينة من العمر يعودون إلى بلادهم في البوسنة ليتزوجوا وتمنحهم الدولة قطعة من الأرض لزراعتها .. وقد أصبح هذا النظام من مصادر انتشار الإسلام .

خامسًا : خرافة امتيازات المسلمين

يُفَنِّد « مالكوم » مزاعم أخرى عن حرمان غير المسلمين من بعض الامتيازات المتاحة للمسلمين ؛ من هذه المزاعم أن غير المسلمين كان محرّماً عليهم ركوب الخيل وحمل الأسلحة ولبس ثياب المسلمين . يقول : « إن هذه مزاعم باطلة لأنه من الثابت تاريخياً أن القسس والتجار المسيحيين كانوا يلبسون ثياب المسلمين ويركبون الخيول وكان التجار المسيحيون يحملون أسلحتهم الخاصة ، أما مسألة حرمان المسيحيين من بناء كنائسهم أو ترميمها فلم ينهض أي دليل عليها » .

وأقول : بل العكس هو الصحيح ، وسنرى حقيقة ذلك في سياقه ، فبناء الكنائس وصيانتها والعناية بها وحراستها من اللصوص ، كلها تحظى برعاية السلطات العثمانية على نطاق واسع .

كذلك فإنه لم يكن من الضروري ـ في الدولة العثمانية ـ أن يكون الإنسان مسلماً لكي يكون غنياً أو ميسور الحال أو متمتعاً بأي امتيازات أخرى ، فقد كان هناك نبلاء مسيحيون من البوسنة انخرطوا في فرق الفرسان المسماة (سباهي) أو (الخيّالة) واحتفظوا ـ وفقاً لطبيعة وظائفهم ـ بأملاكهم .. و لم يُشترط عليهم اعتناق الإسلام لكي يتمتعوا بهذا الامتياز ، بل ظل كثير منهم على مسيحيته ، وكان هذا أمراً عادياً وشائعاً في صدر الفتح العثماني للبوسنة .

* * *

عوامل أخرى ساعدت على انتشار الإسلام

إذن : ما هي العوامل الأخرى التي أدت إلى هذا الانتشار الواسع للإسلام في البوسنة .. ؟

أشار « مالكوم » فيما سبق إلى بعض هذه العوامل ، وهو هنا يتابع مناقشة عوامل أخرى أدت إلى تزايد نسبة المسلمين في البوسنة ويرى أن من أهم هذه العوامل نظام الرقيق ونمو المدن الإسلامية ..

١- نظام الرقيق :

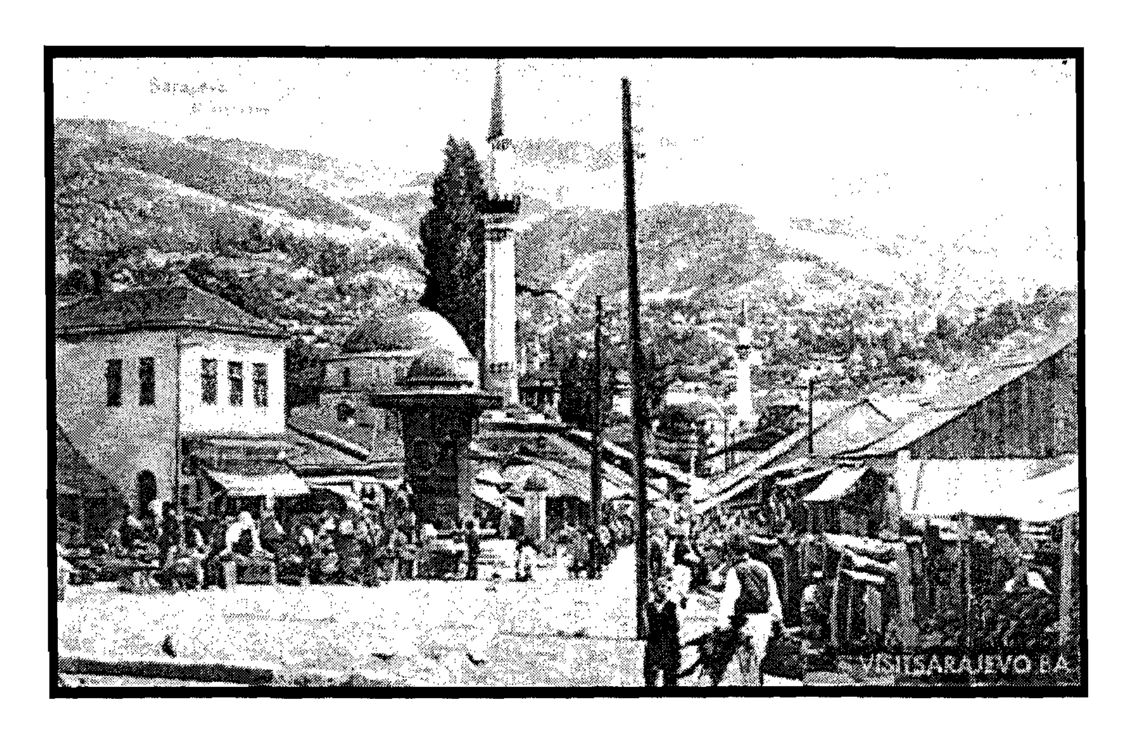
يقول مالكوم إن نظام الرقيق لم يكن اختراعاً جاء به العثمانيون وإنما هو نظام كان قائماً ومعمولاً به في عصرهم وقبل عصرهم .. فأسرى الحروب كانوا يُعتبرون رقيقاً ، وكانت الجيوش المتحاربة تقتل بعض الأسرى وتسترق بعضهم الآخر ، أما العثمانيون فلم يكونوا يقتلون أسراهم لأن ذلك محرم في دينهم . بل كان الأسير يستطيع أن يكسب حريته إذا هو أعتنق الإسلام ..

إلى جانب عُتقاء الرقيق تدفّق إلى البوسنة أعداد من السلاف الذين أسلموا في أنحاء متفرقة من البلقان مثل صربيا ومقدونيا وبلغاريا فقد كانت البوسنة منطقة جذب سكانية نظراً للازدهار الذي تحقق فيها على عهد العثمانيين .. ولعل أكبر تدفق إسلامي نحو البوسنة هو الذي حدث في نهاية القرن السابع عشر عندما انسحب الأتراك من أراضي دَلماشيا وكرواتيا وسلوفينيا والمجر فقد أرتحل على أثرهم أعداد كبيرة من المسلمين متجهين نحو البوسنة .. وكان أكثر هؤلاء النازحين من أصل بوسنوي عادوا إلى البوسنة بعد أن استقروا خارجها ردحاً من الزمن ..

٢ـ نمو المدن وازدهارها :

نمت المدن في « البوسنة » وازدهرت إبان الحكم العثماني ازدهاراً كبيراً ففي السنوات الخمسة عشرة الأولى للفتح بُني في « سراييفو » مسجد وتكية ومأوى للمسافرين وحمام وجسر على نهر « مليكا » .. ونظام لأنابيب المياه ، وأقيم قصر للحكومة سمى (سراي) وأخذت سراييفو « اسمها من هذا السراى .. كذلك أقيم سوق كبير في قلب المدينة .

كانت مدينة « سراييفو » في قرنها الأول تعجّ بالتجار والحرفيين والفنيين .. وفي القرن السادس عشر كان يسكن المدينة طبقتان هامتان هما التجار والجنود وكان لكل طائفة قاضيها الخاص ..



سرايفو في العهد العثماني

وجاء الازدهار الكبير للبوسنة في عهد « غازي خسرو بك » .. وهو من أبناء البوسنة من منطقة « تريني » بالهرسك أعتنق أبوه الإسلام في وقت مبكر ..

وحكم خسرو بك سنجق البوسنة فيما بين سنة ١٥٢١ وسنة ١٥٤١م ، وكان صاحب همة عالية تملّكته روح الخير والإحسان ..

وقد جرت العادة أن يوقف الأغنياء جزءًا من ممتلكاتهم للإنفاق على مشروعات التنمية الخيرية .. فكان وقف خسرو بك من أشهر هذه الأوقاف .

من هذا الوقف بَنَي مسجداً عظيماً في « سراييفو » سمى باسمه فيما بعد .. كما أقام مدرسة ومكتبة وحماماً ، ونُزُلين لإيواء المسافرين وسوقاً للأقمشة .. [كانت النّزل هذه فنادق مجّانية لإيواء كل زائر للمدينة لمدة ثلاثة أيام قابلة للامتداد ...] .

كان لنظام الوقف في البوسنة أثر بالغ في ازدهار المدن وفي التنمية التي عمّت البلاد ، وكان قوام سكان سراييفو من المسلمين ولم يأت إليها المسيحيون إلا في نهاية القرن السادس عشر وانضم إليهم عدد من اليهود .. وازدادت سراييفو تقدماً وعمراناً فأصبح بها ستة جسور وست حمامات .. وثلاثة أسواق والعديد من المكتبات .. وست « تكايا » وخمس مدارس .. وأكثر من خمسين مكتباً (والمكتب هو المدرسة الابتدائية للتعليم الأساسي) ، وأكثر من مائة مسجد .. وكان سكان سراييفو يتمتعون بامتيازات كثيرة .. وصفها بعض المؤرخين بأنها « المدينة الحرة » و« المدينة الجمهورية » .. وطابت الحياة في سراييفو فكان من الطبيعي أن يعتز البوسنويون بالإسلام وهم ينعمون بالعيش في هذه الجنة الأرضية ..

مزاعم وأباطيل حول العرق والدين :

في إطار الحملات الإعلامية الصربية ضد المسلمين خلال الثمانينات زعم غلاة القوميين الصرب أن مسلمي البوسنة ينحدرون من أصول تركية جاءت مع المستعمر القديم ، وعلى ذلك فإن الصرب إنما يحاربون سلالة هذا المستعمر الغريب لإخراجهم من أرض الصرب .. وزعم فريق آخر من هؤلاء الغلاة أن المسلمين الحاليين كانوا صرباً أرثوذكساً ، ثم أسلموا متحالفين مع الأعداء والغزاة .. ولذلك فهم يستحقون القتل والإبادة ..

العجيب أن الفكرتين رغم تناقضهما المبدئي يعيشان جنباً إلى جنب في الكتابات الصربية والإعلام الصربي .. وهذا من سمات العقلية المتعصبة .. فمن شأن هذه العقلية أن تضم الفكرتين المتناقضتين دون إدراك لهذا التناقض .. تذهب الفكرة الأولى إلى أن مسلمي البوسنة أجانب جاء أجدادهم من خارج المنطقة .. بينما تقول الفكرة الثانية إنهم ليسوا أجانب ولكنهم تخلوا عن دينهم وجنسهم واعتنقوا الإسلام .. وفي كلتا الحالتين يجب استئصالهم .

ومن ناحية أخرى نجد الكروات يزعمون شيئاً ثالثاً مختلفاً ، حيث يروّجون في كتاباتهم التاريخية وفي وسائل الإعلام أن مسلمي البوسنة كانوا كرواتاً كاثوليك تنكّروا بإسلامهم لدينهم وقوميتهم .. ويجب إعادتهم إلى الكاثوليكية أو القضاء عليهم .

هذه مقدمة ضرورية لفهم الأمور في إطار الثقافة السائدة في يوغسلافيا السابقة ، وقد تم التلاعب بهذه الحقائق لخدمة أهداف سياسية خبيثة ، وعمليات تخريب وإبادة واستئصال على أوسع نطاق في البوسنة .

أصل الصرب والأرثوذكسية في البوسنة :

لم يكن للصرب ولا الأرثوذكسية أي وجود في البوسنة قبل دخول العثمانيين على الإطلاق . يقول « نويل كالكوم » : « إنه لا يوجد أي دليل على وجود مبنى لكنائس أرثوذكسية في البوسنة قبل الفترة العثمانية » ..

ثم يمضى ليفنّد كلام أحد مؤرخي الصرب ، فى ادعائه بوجود بعض الأديرة الأرثوذكسية في شمال البوسنة قبل وفود العثمانيين ، فيقول : « أما بالنسبة للتنظيم الكنسي فقد كانت الكنيسة الأرثوذكسية غائبة تماماً عن الصورة في البوسنة قبل العهد العثماني » . فقد تبين لمالكوم أن كتابات هذا المؤرخ يشوبها اضطراب شديد وأنها كتابات غير دقيقة ... إنه لا ينكر وجود بعض أفراد من الأرثوذكس في البوسنة ، حيث من المعروف أن بعض نبلاء البوسنة تزوجوا من أسر النبلاء في صربيا .



هذا وقد ألممنا بطرف من الجدل الذي دار حول الديانة التي سادت في البوسنة قبل الإسلام .. وهل كانت كاثوليكية مارقة أم أنها كانت بوجوميلية ..

كذلك يستطيع أي باحث منصف أن يحكم مطمئناً إلى أن الوجود الكاثوليكي لم يكن له كيان حقيقي صحيح في البوسنة .. وأن التمرد على الكاثوليكية والمسيحية بصفة عامة كان هو الحال الدائم ، وأن الشكوى المريرة من انحراف البوسنويين عن المسيحية أو اعتناقهم لديانة أخرى غيرها ، كانت مستمرة من جانب الكاثوليك والكنيسة الكاثوليكية في روما ..

كذلك فإن الثابت من الوثائق يؤكد تعرّض البوسنويين للإرهاب والاضطهاد من جانب محاكم التفتيش التابعة للكنيسة الكاثوليكية لحملهم على اعتناق الكاثوليكية في عهود بابويّة كثيرة ، دون جدوى ..

ومن الثابت أيضاً أن العثمانيين عندما دخلوا البوسنة إنحسرت حملات الاضطهاد والإرهاب الكاثوليكي .. وأغلقت محاكم التفتيش الكنسيّ أبوابها إلى الأبد .. وذابت فلول القساوسة الكاثوليك الذين جُلبوا إلى البوسنة في عهد آخر ملوكها .. وكانوا قد استقروا في أطرافها الشمالية تحت حماية المجريين والنمساويين .. وبهذا تسقط مزاعم القوميين الكروات بأن مسلمي البوسنة كانوا كرواتاً ... ؟ . من أين إذن جاء صرب البوسنة الأرثوذكس؟ ومن أين جاء كروات البوسنة الكاثوليك .. ؟

تكمن الإجابة على هذين السؤالين فى السياسة العملية للأتراك العثمانيين في البوسنة .. تلك السياسة التي انبعثت من إستراتيجيتهم في البلقان ، التى تميّزت باتجاهين بارزين : سياسة الإحلال أو إعادة السكان وتعمير المناطق المهجورة .. وتفضيل الكنيسة الأرثوذكسية على الكنائس الأخرى .. أما التعامل مع الكاثوليك فقد جاء في وقت متأخر نسبياً ..

كان الأرثوذكس في البلقان يستمدون سلطتهم الدينية من السلطان العثماني ، وكان السلطان يعتبر نفسه بحكم القانون حامي حمى الأرثوذكسية .. أما الكاثوليك فكان العثمانيون ينظرون إليهم باعتبارهم عملاء لقوى خارجية ..

وقد ورد ذكر أول بطريارك أرثوذكسي للبوسنة سنة ١٥٢٣ وبدأت أول كنيسة أرثوذكسية في سراييفو في منتصف القرن السادس عشر .. وفي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حدث تدفق أرثوذكسي كبير من البلاد المجاورة للبوسنة ، وقد رحب العثمانيون بهم للاستعانة بهم في تنفيذ سياسة التوطين والتعمير للمناطق التي خلت من سكانها بسبب الحروب أو بسبب الطاعون .

دبّ الوهن في أوصال الدولة العثمانية في ثمانينات القرن السابع عشر واستطاع النمساويون إخراج الأتراك من المجر .. ثم طردوا المسلمين المجريين منها فتدفقت أعداد كبيرة منهم إلى البوسنة ..

في تلك الأثناء كان جيش البندقية يقوم بهجمات مباشرة على حدود البوسنة ، ولكن استطاع « البشناق » صد هذه الهجمات ، بينما تمكّنت النمسا من الاستيلاء على الأراضي التابعة لإيالة البوسنة داخل كرواتيا .

وتأزمت الأمور أكثر بالنسبة للعثمانيين بحلول عام ١٦٨٩م عندما اقتحم الجيش النمساوي « البوسنة » و « صربيا » حتى وصل إلى « كوسوفا » ، وانتهز الصرب الفرصة فقاموا باتفاق سري مع النمسا لإعلان التمرد ضد السلطات العثمانية ، وبدا العثمانيون وكأنهم يوشكون أن يفقدوا البلقان ، إلا أنهم استعادوا كفاءتهم واستردوا قواهم ، فاستطاعوا رد العدوان النمساوي عن « صربيا » و « البوسنة » فانسحب الجيش النمساوي مُتراجعًا .

الغزو النمساوي :

كتب الأمير « يوجيني » قائد الحملة النمساوية على « سراييفو » ، يصف غزوته ، قال : « في ٢٣ أكتوبر وضعت قواتي في جبهة عريضة على مرتفع يطل على مدينة سراييفو ، وكنت أبعث بفصائل للقيام بأعمال النهب .. وكان الأتراك (يقصد السكان البوسنويين) قد خبأوا كل شئ ذا قيمة ، إلا أن هذه الفصائل وجدت كثيراً من السلع والأشياء الثمينة فاستولت عليها .. كانت المدينة فسيحة مفتوحة وتبدو فيها مآذن مائة وعشرين مسجداً .. مكثت في سراييفو يوم ٢٤ أكتوبر .. ثم بدأنا فى إشعال النيران بها. فشبت الحرائق بالمدينة وجميع المناطق المحيطة بها بعد أن عادت فصائل النهب بالغنائم وبكثير من النساء والأطفال بعد أن قتلوا الكثير من الناس .. وجاء المسيحيون (الكاثوليك) إلينا في جموع كبيرة وطلبوا منا السماح لهم بالحضور إلى معسكراتنا بأمتعتهم ، حيث أنهم يعتزمون مغادرة البوسنة والرحيل معنا .. ولقد كنت أتمنى أن آخذ جميع المسيحيين معي وأعبر بهم نهر سافا عائداً » .

من هذا التقرير العسكري للأمير النمساوي قائد الغزو نستطيع أن نرىٰ : مَن هم المتحضرون ومن هم البرارة المتخلّفون : مسلمو البوسنة أم كاثوليك النمسا .. ؟ .

قام الإنكشارية سنة ١٨٢٧ بتمرد في البوسنة فأرسل السلطان إليهم قوة بلجراد بقيادة « عبد اللَّه باشا » فقضى على التمرد في سراييفو ولكنه بعد ثلاثة أيام من القتال اضطر للرحيل إلى « ترافنك » .. وكان سبب التمرد الإنكشاري هو التغييرات التي لحقت بالجيش تحقيقاً لإجراءات تحديثه على غرار الجيوش الأوروبية الناهضة ، من حيث أساليب التدريب والتسليح العسكري .

ولم تهدأ الاضطرابات في البوسنة بسبب التمرد والقتال المتواصل ، فعَانَت البلاد من هذه الأوضاع المتردية واضطراب ميزان العدالة ، وتأثرت بكل ذلك الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

وهناك تقرير له دلالته ، كتبه القنصل النمساوي إلى « مترنخ » بعد زيارته للبوسنة سنة ١٨٤٤م يقول : « إن الانطباعات التي جئت بها عند مغادرتي للبلاد أسوأ من انطباعاتي عند بدء الزيارة . فقد تزايدت شكوك السلطات البوسنوية في دور المسيحيين لتعاونهم مع إخوانهم في الخارج لغزو البوسنة ، ولكن المشكلة في حقيقتها مشكلة سياسية ولا علاقة لها بالدين ، فالرعايا البوسنويون سواء منهم المسلمون أو المسيحيون يتعرضون للابتزاز المالي من جانب السلطات المحلية سواء بسواء .. » .

ومهما يكن الأمر فقد ظل التسامح سائدًا في البوسنة تجاه المسيحيين فقد دعمت السلطات أنشطتهم في فتح المدارس الخاصة بهم وبناء مزيد من الكنائس والحصول على مزيد من الحقوق والحريات ، والتوسع في الأنشطة الأهلية المتنوعة . كل ذلك رغم الشبهات التي أحاطت بهم في التجسس والتعاون مع الأعداء الخارجيين .

وقد أثار هذا الموقف المتسامح من جانب السلطات المسلمة إعجاب كاتب مسيحي مثل مالكوم الذي كتب يصف هذا الموقف بأنه : « موقف مثير للدهشة حقاً » ..

لم تكن النمسا وحدها هي التي تتربص لاجْتياح البوسنة ، وإنما كانت ـ صربيا كما أشرنا من قبل ـ وكذلك كرواتيا كلاهما يتربص بالبوسنة . ولأن الحرب تبدأ في العقول أولاً فقد شرع الكُتّاب الصرب يُمَهِّدون العقول للعدوان القادم على البوسنة ..

* * *

مذكرات طبيب سويسري في البوسنة

رغم كل هذه الاضطرابات في ستينات القرن التاسع عشر تمتعت البوسنة بعقد ذهبي تحت قيادة واحد من ألمع حكامها هو « طوبال عثمان باشا » وقد ورد ذكره في مذكرات طبيب سويسري اسمه « جوزيف كيوتشت » الذي استقر في سراييفو سنة ١٨٦١م وفتح صيدلية هناك وأصبح موضع ثقة لكثير من الحكام المتعاقبين ، ولكن « طوبال عثمان باشا » كان أفضلهم عنده .. كان أميراً للبحرية العثمانية ثم حاكماً مدنياً لبلجراد ، وتعلم في تركيا وأجاد العربية والفارسية وكتب شعراً جيداً باللغة التركية .. وكان إلى جانب ذلك يتحدث باليونانية والفرنسية ... أنشأ مدارس إسلامية حديثة في سراييفو وسمح للمسيحيين ببناء مدارس خاصة بهم .. وأنشأ مكتبة جديدة جمع فيها الكتب العربية والفارسية والتركية ، كما أنشأ مطبعة لطباعة الكتب الدراسية .

وأصدر مجلة أسبوعية باللغة البوسنوية والتركية سماها « بوسنا » .. وقام بتنفيذ برنامج لاستكمال شبكة واسعة من الطرق تبدأ من « سراييفو » إلى « بوسنسكا برود » في عام واحد .. وأقام خطًّا للسكك الحديدية من « بنْيالوكا » إلى حدود كرواتيا .. وأنشأ مستشفى في سراييفو وهي أول مستشفى عام في البوسنة .. كانت تضم أربعين سريراً لجميع المواطنين بصرف النظر عن إنتمائهم الديني .. وأنشأ مجموعة جديدة من المحاكم بما في ذلك محكمة عليا للاستئناف يرأسها قضاة مسلمون ومسيحيون معاً .

وفي إطار إصلاحاته السياسية أنشأ مجلساً للشورى مُثّلت فيه السناجق السبع التي كانت تشكّل كيان إيالة « البوسنة والهرسك » .. كان يمثل كل سنجق ثلاثة :

اثنان من المسلمين ومسيحي .

وكان المجلس يجتمع أربعين يوماً في السنة لتقرير سياسة الحكومة في المسائل الاقتصادية والمالية والزراعية .. والضرائب وبناء الطرق . إلى جانب ذلك أنشأ طوبال باشا مجلساً تنفيذياً إدارياً يتألف من ثلاثة من المسلمين واثنين من المسيحيين ويهودي .. كان هذا المجلس يجتمع يومين في الأسبوع .. ورغم أن الطابع العام للمجلسين يغلب عليه الصفة الاستشارية إلا أن وجودهما يعتبر تقدماً كبيراً في إطار الحكم العثماني للبوسنة ..

وفي سنة ١٨٥٩ صدر فرمان لتنظيم العلاقة بين الفلاحين وأصحاب الأراضي الزراعية وجاء « طوبال باشا » لتنفيذه .. حدد هذا الفرمان حق صاحب الأرض في ثلث المحصول بعد خصم ضريبة الحكومة التي قُدرت بعشرة في المائة . ويجب أن ننوّه هنا أن الفلاحين لم يكن عليهم أن يدفعوا شيئاً في شراء بيوتهم أو شراء الأرض التي تُبنى عليها هذه البيوت .. فقد حدد هذا الفرمان أن صاحب الأرض هو الملزم بتوفير المسكن للفلاح والإنفاق على إصلاحه وصيانته .. وكان من حق الفلاح أن يهجر الأرض ويذهب إلى أي مكان آخر إذا شاء ومتى شاء .. وكان هذا محرّمًا فى النظام الإقطاعي الأوربي ..

ويمضى « جوزيف كيوتشت » في شهادته ليؤكد أن الممارسات السابقة لملاك الأراضي تجاه فلاحيهم قبل صدور الفرمان المذكور لم تكن بهذا السوء الذي وُصفت به أحياناً في كتب المؤرخين حيث يقول : « لقد عاش معظم الفلاحين في ظروف تشوبها العلاقات الطيبة مع ملاك الأراضي .. فقد اعتاد ملاك الأراضي في السنوات العجاف على تقديم كل مساعدة ممكنة لفلاحيهم » .

ولم يستبعد « جوزيف كيوتشت » بعض المظالم التي كانت تقع على الفلاحين من جانب بعض الأغوات المستبدين .. ولكن هذه المظالم كانت مصدراً لأعمال التمرد في البوسنة .. وهو يؤكد مرة أخرى أن هذا الصراع كان بسبب تعارض في المصالح الاقتصادية ولا علاقة له بالدين ..

ومما يستحق الذكر في هذا المجال أن ألفًا من الفلاحين بعضهم من المسلمين والبعض الآخر من المسيحيين الأرثوذكس قاموا معاً بثورة في منطقة « بوسافينا » سنة ١٨٦٨م ضد مكتب تحصيل الضرائب ، وفي سنة ١٨٦٩م قامت مجموعة أخرى من المسلمين والأرثوذكس معاً بتمرد مماثل في « فوتشا » .. ولعل هذه الحوادث التي عاصرها « كيوتشت » هي التي جعلته يؤكد استبعاد العنصر الديني من الصراعات الدائرة بين الفلاحين وبعض ملاك الأراضي .

يدعم هذه الحقائق الصورة البديعة التي يرسمها « كيوتشت » لحياة الناس في سراييفو كما شاهدها بنفسه .. حيث يذكر لنا كيف كانت الأسر المسيحية الأرثوذكسية والكاثوليكية تجتمع معًا ، بعد ظهر أيام الآحاد في الصيف ، على سفوح الجبال الخضراء ، وكيف كان المسلمون واليهود يشاركونهم في هذه الرحلات الخلوية مع أسرهم فيقضى الجميع أوقاتاً سعيدة لا يعكرها كراهية دينية .. وقد دام الحال على هذا المنوال خلال تسع سنوات عاشها السويسريّ « كيوتشت » إبان حكم « طوبال باشا » فى سراييفو .

لم يكن التسامح الإسلامي مقتصراً على الطوائف المسيحية فحسب ، بل شمل جميع المواطنين ، فقد كان في البوسنة قبل وفود العثمانيين إليها مجموعات متفرقة من الغجر ، أما اليهود فقد جاءوا خلال القرن الأول من الفتح العثماني ، وعومل

الجميع في البوسنة ، بل في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كلها ، أفضل معاملة وأكثرها إنسانية .

وفي ذلك يقول « نويل مالكوم » : « الذين يتسرعون في اتهام الأتراك بالوحشية وعدم التسامح عليهم أن يتوقفوا قليلاً ليتأملوا أسلوب معاملة اليهود والغجر في الإمبراطورية العثمانية لكي يروا الفرق الصارخ بين التسامح والمعاملة بالحسنى عند الأتراك ، وبين التعصب والوحشية التي عومل بها الغجر واليهود في أوروبا .

ففي قلب أوروبا المسيحية ، أدى هذا التعصب مع الأيديولوجية النازية إلى مذابح رهيبة وإلى محارق لعشرات الألوف من اليهود والغجر في منتصف القرن العشرين » ، وهو يقصد مذابح ألمانيا النازية إبان الحرب العالمية الثانية .

شهدت الحقبة الأولى للحكم العثماني في البوسنة نموذجاً إنسانياً متميزاً في معاملة الغجر ، فقد صدر بشأنهم فرمان خاص سنة ١٦٠٤م يقول : « غير مسموح لأحد بإهانة الغجر ولا قهر هذه الفئة من الناس بأي حال من الأحوال » .

أما في بريطانيا وفي نفس هذه الفترة تقريباً (سنة ١٥٩٦) فإننا نرى مشهداً مختلفاً تماماً ؛ فقد قُدّم إلى المحاكمة مائة وستة من الغجر في منطقة « يورك » بتهمة التسوّل وصدرت ضدهم أحكام متفاوتة ، وقطعت رءوس تسعة منهم بمقتضى قانون برلماني صدر في عهد الملكة إليزابيث الأولى استهدف معاقبة الشحاذين الغجر الذين كانوا يُعرفون باسم المصريين ؛ (ولا أعرف مصدر هذه التسمية الغريبة) ولكن المهم أن هذه العقوبة المغلّظة لا تتناسب أبداً مع جرم كهذا .. ذلك إذا أعتبر التسول جريمة .. ولم تكن العقوبة إلا نذيراً للغجر لكي يبتعدوا عن المجتمع البريطاني الذي لا يتحمل استيعاب عناصر أخرى مخالفة من البشر سواء

من ناحية العرق أو اللون أو الدين ..

في البوسنة المسلمة كان الأمر مختلفاً فقد كانت الحقوق القانونية الأساسية للغجر هي نفس الحقوق التي تمتع بها المسلمون والمسيحيون واليهود جميعاً على السواء ، ولذلك عندما غزا النمساويون البوسنة سنة ١٧٨٨م انضم الغجر إلى القوات النظامية للدفاع عن البوسنة جنباً إلى جنب مع المسلمين والمسيحيين ..

وهكذا كلما أمعنّا النظر في تاريخ البوسنة نواجَه بالمقارنة التي تفرض نفسها تلقائياً بين سماحة المسلمين سواء منهم الأتراك (العثمانيين) أو البشناق في تعاملهم مع الطوائف الأخرى التي تختلف عنهم في الدين أو العرق ، وبين وحشية أوروبا العنصرية التي لا تقبل بوجود الآخر أو التعايش معه في سلام .

ليس صحيحًا إذن أن عصور الدولة العثمانية كلها كانت عصور ظلام وطغيان كما يحلو لبعض المؤرخين أن يزعموا دون دليل .. ويبدو أن إعادة النظر في التاريخ العثماني أصبحت واجباً تفرضه روح البحث النزيه عن الحقيقة .. وقد تناول هذا الموضوع برنامج وثائقي أذيع بالتلفاز المصري مساء الجمعة ٦ ديسمبر ١٩٩٦م .. أكد فيه الدارسون ضرورة إعادة النظر في هذا التاريخ « لأن ما كتب لنا في المدارس والجامعات عن العثمانيين يتجافى مع الحقيقة .. وأن الباحثين الجدد لديهم الآن فرصة الإطلاع على وثائق لم تُتحْ للمؤرخين السابقين » ..

وفي هذا إشارة إلى الانفتاح حديثاً لكنوز الوثائق العثمانية التي حبستها حكومة كمال أتاتورك وما جاء بعدها من الحكومات التركية العلمانية حتى يستطيع المفترون أن يروّجوا ما شاءوا من أكاذيب دون خوف من مراجعة المنصفين ..

ولا عجب أن نرىٰ أن أكثر الناس إقبالاً على الوثائق العثمانية اليوم هم الباحثون

الأمريكيون .. إنهم ينقبون عن العوامل الكامنة في بناء المجتمع العثماني التي جعلته قوياً متماسكاً على مدى عدة قرون رغم انتشاره وضخامته واحتوائه على العديد من الأجناس والأديان والشعوب .

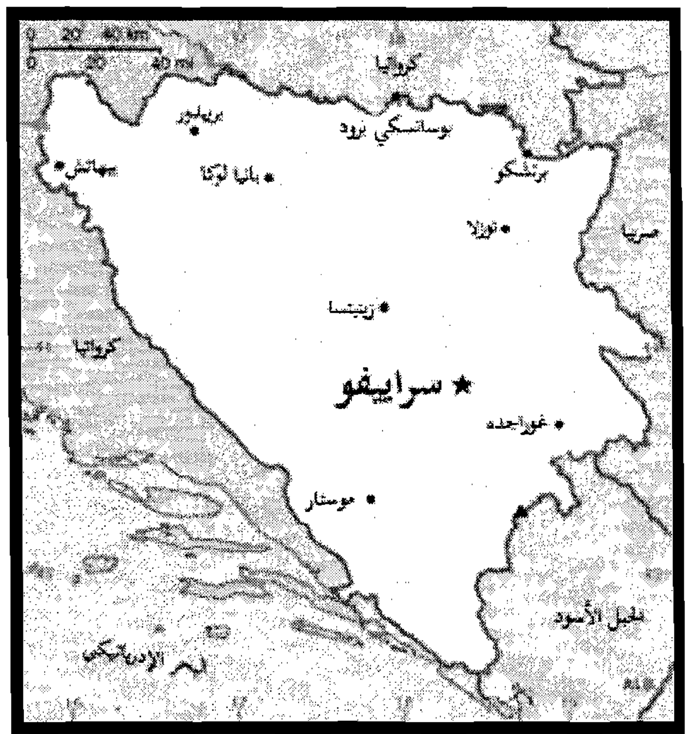
وقد وجدنا باحثة أمريكية معاصرة معجبة بالبناء الاجتماعي العثماني حيث تقول : « هذا المجتمع يتميز بأن لكل فرد فيه مكان معين وله حقوق وواجبات محددة .. حتى أن أقل طبقات السكان شأناً كانت محصّنة ضد النزوات السلطوية .. وبهذه الحقوق فضّل الفلاحون في البلقان الحكم العثماني على حكامهم المتسلطين « الذين ينتمون إلى نفس العرق ونفس الدين .. » .

* * *

ازدهار الحياة الاقتصادية والثقافية في البوسنة

ازدهرت الحياة في البوسنة في ظل الحكم العثماني ازدهاراً كبيراً وظهر بها طبقة من كبار ملاك الأراضي إلى جانب طبقة أخرى من الملاك الصغار من البوسنويين ، وقد صاحب هذا تغيير في النظام العسكري والمالي في الدولة العثمانية ..

وكان من نصيب السكان المسلمين فى البوسنة أن يتحملوا العبء الأكبر من الجهد العسكري لا في الدفاع عن البوسنة وحدها ولكن في مساعدة الدولة العثمانية في أنحاء كثيرة من أراضيها الشاسعة .



الحياة فى سراييفو :

بلغ ازدهار سراييفو خلال القرن السابع عشر مبلغاً جعلها إحدى عجائب البلقان ، بل اعتبرت أهم مدينة داخلية تقع غرب سالونيكا .. يصف أحد الزوار متجراً من

متاجرها فيقول إنه يحتوى على بضائع تبلغ قيمتها مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف دوقية ، مما يدل على الثراء الذي كانت تتمتع به في ذلك العصر .. نزل بالمدينة باحث ومؤلف تركي هو « أوليا جلبي » في سنة ١٦٦٠م فأحصىٰ ما بها من منازل فوجد بها سبعة عشر ألف منزل ، وهذا يعنى أن عدد سكان سراييفو في ذلك الوقت كان يزيد عن ثمانين ألف شخص ، وأحصى « أوليا جلبي » مساجدها فوجد مائة وأربعة مساجد ، ووجد بها سوقًا ضخمًا يحتوى على ألفٍ وثمانين متجرًا ، تبيع سلعاً واردة من بلاد العرب ومن الهند والفرس وبولندا وبوهيميا ..

وزار سراييفو قبل ذلك بعامين فرنسي فأبدى نفس الانبهار والحماس في وصف مدينة سراييفو حيث كتب : « هناك شوارع جميلة نظيفة وقناطر ذات طرز معمارية بديعة ، وبها ١٦٩ نافورة مياه .. والمدينة حافلة بالحدائق المزهرة فكل منزل به حديقته الخاصة التي تمتلئ بأشجار الفاكهة خصوصاً شجر التفاح » .. وأعجب الرجل أيضاً بسوق المدينة وما يحفل به من سلع لا تُحصى أنواعها .. وأناس لا يُحصى عددهم .. كما أعجبه بصفة خاصة السوق الأسبوعي للخيول الرشيقة .

ولاحظ « أوليا جلبي » وغيره من الرحالة وفرة المياه النظيفة الجارية في المنازل وفي كل مكان .. إلى جانب الحمامات والمرافق العامة مما ساعد على حياة صحية نظيفة .. وفي ذلك يقول « أوليا جلبي » : « ترى حمرة وردية على الوجوه المبتسمة لسكان سراييفو نظراً لجودة الطقس وجمال الطبيعة ، حيث العشب الأخضر يكسو سفوح الجبال المحيطة بالمدينة .. ولذا تبدو على سكان المدينة مظاهر الصحة والقوة ، ومن علامات ذلك وجود ألف شخص مسنّ يتمتعون بالصحة والنشاط وهم فوق السبعين » .

رغم أن « سراييفو » قد تعرضت للتخريب خلال حرب ١٦٩٧م وللحرائق في سنتي ١٧٢٤ ، ١٧٨٨م ولكنها كانت تستعيد ما أتلفته الحروب والحرائق وتستردّ رونقها وبهاءها في كل مرة .. ورغم ما أصابها من محن ورغم تقلص عدد سكانها الذي أصبح عام ١٨٠٧ ستين ألفا فقط فإن تعداد سكانها كان يفوق تعداد بلجراد وزغرب في نفس الفترة ، فقد سجل تعداد مدينة زغرب أربعة عشر ألف شخص .. وظلت سراييفو بعد ذلك رائعة باهرة متفوقة على غيرها من مدن شرق أوروب .. بل كانت سراييفو في وقت زيارة « أوليا جلبي » تزهو على سائر المدن الأوروبية كلها بنظافتها وجمالها وأمنها ورخائها .

وللمقارنة نُورد وصفاً ملخّصًا للمدن الأوربية كما سجَّله « جيفرى تريجر » في أحد كتبه يقرر أنه حتى عام ١٧٠٠م كان يوجد في أوروبا كلها ٤٨ مدينة فقط يزيد تعداد سكانها عن أربعين ألف شخص .. أما أكثر المدن فكانت لا تزيد عن عشرة آلاف وبعضها اقتصر على ألف أو ألفين .. ويصف « تريجر » أهم المرافق التي تشتمل عليها المدينة الأوروبية في ذلك الوقت فيقول : « كانت تشتمل على كنيسة كبيرة وواحدة صغيرة أحيانا .. ومحكمة ، ومدرسة واحدة وسوق ودار لنقابة التجار والصناع .. وكانت المدينة الأوربية عالماً معزولاً تحيطه الأسوار وتنبعث منه الروائح الكريهة حيث تتجول الخنازير والدجاج في شوارعها .. وتتكدّس فيها أكوام فضلات الحيوانات المعدّة لتسميد الأرض الزراعية » ..

ويعزو « تريجر » تدنّي عدد سكان المدن إلى خوف سكانها من غزو المتسولين ومن الحرائق التي التهمت في مدينة بروكسل وحدها ٣٨٣٠ منزلاً مرة واحدة عام ٦٩٥ .. كما كانوا يخشون اقتحام الجنود للمدينة سواء كانوا من جيش صديق أو

من جيوش الأعداء .. حيث كان الجميع يُلزمون السكان بإيوائهم في بيوتهم وتزويدهم بالطعام والمؤن اللازمة .. ومن ثم لم تكن المدن الأوروبية مناطق جذب بل مناطق منفّرة طاردة للسكان ..

(انظر جيفرى تريجر : Geoffrey Treasure : The Making of Modern Europe1648 - 1780) من صفحة ١٧ الى صفحة ٢٠ .

الحياة الاقتصادية :

استمر الازدهار الاقتصادي في البوسنة خاصة بعد اتفاقية « باساروفتش » التي فتحت أمام تجار البوسنة أسواق الإمبراطورية النمساوية في « ليبزج » و « فيينا » ، وكانت أهم صادرات البوسنة لهذه الأسواق : الحاصلات الزراعية من الفاكهة ، وعلى الأخص التّمور المجففة ، والجلود والفراء ، وكانت أهم وارداتها المنسوجات ..

تواكب هذا الازدهار مع قوة الدولة العثمانية ، عندما كانت في أوج عزها وعنفوانها ، ولكن سرعان ما دبّ الفساد في رأس هذه الدولة ، وبدأت أوصالها تتفكك .. ويصف الدبلوماسي الإنجليزي سير « جيمس بورتر » سنة ١٧٦٨م أسباب هذا الفساد فيقول إنه كان نتيجة لأخطاء في النظام الإداري والسياسي ولم يكن نتيجة انحدار عام في الأخلاق .. ففي تلك الفترة من الركود ظلت شهادة شهود العيان تعبر عن الإنبهار بالتقاليد الأخلاقية والاجتماعية السارية في أرجاء الإمبراطورية العثمانية .. حيث يذكر « سير جيمس بورتر » أنه لاحظ بنفسه أن السرقة نادرة في إسطنبول .. وقال : « إنك تستطيع أن تعيش هناك في أمان بينما أبواب بيتك مفتوحة طول الوقت ... » .

لاحظ بعض المراقبين أن السياسة العثمانية في البوسنة ابتداء من القرن التاسع عشر

أخذت تتحول في البوسنة إلى جانب الكاثوليك أكثر من الأرثوذكس .. والأرجح أن السبب في ذلك يعود إلى تزايد ولاء الأرثوذكس لصربيا التي دأبت على مناوأة العثمانيين، وكان التنافس بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية في البوسنة على أشده ...

الحياة الثقافية :

صوّر بعض المتعصبين من الكتاب الصرب العصر العثماني في البوسنة بأنه كان عصراً قاحلاً مفتقراً للحياة الروحية والأدبية .. وفي هذا السياق يقول الكاتب الروائي « إيفو أندريتش » في بحث كتبه عن الثقافة في البوسنة العثمانية : « لقد كان الحكم التركي سلباً مطلقاً .. فلم يستطع الترك أن يجلبوا معهم محتوى ثقافياً ذا قيمة .. وهذا الحكم ينطبق أيضاً على السلاف الجنوبيين الذين اعتنقوا الإسلام » ..

والحقيقة أن مثل هذه الأحكام إنما تدل على جهل صاحبها ، أو على حد قول « نويل مالكوم » : إنها مجرد تعبير عن التعصب الأعمى (وهو عمى اختياري) أمام هذا الزّخم في الآثار المعمارية العثمانية البديعة .. عمى اختياري أمام الفيض الوافر من الأعمال الأدبية المتنوعة التي كتبها البسنويون المسلمون في ظل الحكم العثماني .. ولا أحد يعرف الآن على وجه اليقين مقدار ما فُقِدَ من هذه المخطوطات بعد التدمير المركّز والحرق المنظم للتراث الثقافي لمسلمي البوسنة على يد الصرب في غزوهم لها بين سنتي١٩٩٢ و ١٩٩٥م ...

ورغم أن ما كان موجوداً في البوسنة قبل الغزو الصربي لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من هذا التراث الضخم إلا أن السجلات تذكر أن « سراييفو » كانت قبل بدء القصف تحتوى على ٧٥٠٠ مخطوطة أصلية محفوظة في مكتبة « غازي خسرو بك » ، وخمسة آلاف

مخطوطة أخرى محفوظة في المعهد الشرقي و (١٧٦٢) مخطوطة في الأرشيف التاريخي ، و (٤٧٨) مخطوطة في المكتبة الوطنية ... من هذه الأرقام وحدها يستطيع المرء أن يحكم بأن البوسنة العثمانية لم تكن صحراء ثقافية ، كما يزعم الزاعمون .. بل إن الكتاب البوسنويين تركوا آثاراً فكرية أخرى باللغات العربية والتركية والفارسية لا تزال موجودة في مجموعات إسطنبول و « فيينا » والقاهرة وفي أماكن أخرى من العالم ... نذكر فى هذا المجال أن مجلة الأزهر (فى تسعينات القرن العشرين) نشرت كتابا رصدت فيه أعمال كُتّاب وعلماء البوسنة فى مصر .

من الأنماط الأدبية التي شاعت في البوسنة ما يسمى بأدب « ألياميدو » Aliamido ، وهي أعمال مكتوبة باللغة الوطنية بحروف عربية شأنها في ذلك شأن الكتابات التركية القديمة والكتابات الفارسية ... ومن الأسماء البشناقية البارزة ممن حمل مشعل الفكر والثقافة يُذكر اسم « محمد يوسكوف » (المتوفى سنة ١٦٥١م) ، فقد ألّف قاموساً من التركية إلى الصربو - كرواتية وبالعكس .. ويعتبر هذا ثاني أقدم قاموس في أي لغة سلافية على الإطلاق .. وكان للمسلمين دور قوى في ازدهار الأدب الشعبي الغني ... ولأن اللغة البوسنوية ظلت وعاءً حاملاً للفكر والأدب حقبة طويلة من الزمن أصبحت أكثر حساسية ومرنة عن غيرها من اللغات « الصربو كرواتية » الأخرى السائدة فى يوغسلافيا .. ولذلك كتب « مورو أوريبني » يقول : « من بين جميع المتحدثين باللغات (الصربو كرواتية) يملك البوسنويون أجمل وأرقّ لغة .. وهم يفخرون إلى اليوم بأنهم يحتفظون بلسان سلافيّ نقيّ .. ولاحظ الكاتب الصربي الشهير في القرن التاسع عشر « فوك كاراجيتش » أن لهجة وسط الهرسك تمثل اللغة الشعبية في أفضل وأنقى صورها ..

كان البوسنويون يكتبون أيضاً بلغات البلاد الإسلامية كالفارسية والعربية

والتركية ؛ فقد كان القاموس الاصطلاحي للفلسفة باللغة العربية ، فلما كتبوا في الفلسفة جعلوها باللغة العربية ، وألفوا شعراً باللغة الفارسية .. وهكذا كان اختيار اللغة مرتبطاً باختيار الموضوع .. ولكن هذا لا يمنع أن البوسنويين وهم يشعرون أنهم جزء من الكيان الإسلامي الأوسع ويرغبون في أن يشارك جمهور أوسع في قراءة ما يكتبون ، لجأوا إلى هذه اللغات يكتبون بها في موضوعات عامة مثل علوم الدين والتاريخ والفلسفة والشريعة ، إلى جانب كتاباتهم الأدبية الأخرى ..

وتضم قائمة المؤلفين البشناق عدداً كبيراً من أسماء المؤلفين نذكر بعضهم على سبيل المثال : « أحمد سعودي البوسنوي » (المتوفى ١٥٩٨م) الذي كتب تعليقات على الشعر الفارسي الكلاسيكي .. و « حسن أفندي بروشاق » (المتوفى ١٦١٦) الذي ألف كتابه الشهير (مرآة الأمراء) وهو بحث في الحلم .. إلى جانب العديد من الكتب في المنطق والقانون ، كما وضع ثبتاً بأسماء المؤلفين البوسنويين ، و « عبدي البوسنوي » (توفى ١٦٤٤) كتب عدة رسائل عن حياة الصوفية وأحوالهم ، و « إبراهيم على بيجوفيتش » (توفى ١٦٥١) ألف في التاريخ باللغة التركية عن الفترة ما بين ١٥٢٠ إلى ١٦٤٠م ، ورجع في كتابته إلى المصادر الأوربية المطبوعة . و « أحمد الموستاري رشدي » (توفى سنة ١٦٩٩) وكان واحداً من عدد كبير من شعراء مدينة « موستار » الذي كتب شعراً بالتركية محاكياً فيه الأنماط الشعرية الفارسية . و « مصطفى الموستارى أيوبوفيتش » وكان مشهوراً باسم « شيخ يويو » (توفى سنة ١٧٠٧م) بعد أن ألف ثلاثين رسالة في المنطق واللغة والشريعة . و « مصطفى الأقحصاري » (توفى ١٧٥٥م) الذي ألّف العديد من الكتب في الدين والأخلاق ، وكتب رسالة طريفة في تقريظ القهوة . و « مصطفى باشيسكي » (توفى ١٨٠٩م) الذي ألف تاريخاً مرتباً زمنياً

لمدينة « سراييفو » على غرار يوميات الجبرتي (المصري) . بعض هؤلاء الكتاب كان يعمل خارج البوسنة كمعلمين أو رجال إدارة ، ولكن أكثرهم كان يعمل في البوسنة نفسها ، فمثلاً « الشيخ يويو » نفسه كان قاضي موستار ، كما عمل حاكماً للبوسنة فترة من الوقت . أما « درويش باشا البوسنوي » (توفى ١٦٠٣) فكان شاعراً لامعاً كما قام بترجمة كثير من الآثار الشعرية الفارسية إلى اللغة التركية .

وهكذا يتضح لنا بلا لبسٍ زيفَ الإدعاء الصربي بأن البوسنة كانت صحراء ثقافية إبان الحكم العثماني ، أو بحسب تعبير نويل مالكوم الحاسم : « إنها فرية مردودة على صاحبها » .

وإلى جانب الفكر والأدب كان للبوسنويين سجل حافل في مجال الفنون الجميلة كالخطوط والمنمنمات التي اشتهروا بها طوال الفترة العثمانية . كان للطوائف والفرق الصوفية نشاط ملحوظ في البوسنة وقد خلف كُتّاب الصوفية (٢٢٢) مخطوطاً في تكية « سنان » بسراييفو ، وكانت لهم أشعار صوفية رقيقة معروفة باسم « إلاهيات » ، كان يؤلفها الدراويش ويتغنون بها في مجالسهم وأذكارهم ، ويمثل المتصوفة الإسلام الشعبي غير الرسمي خارج المدارس النظامية والمساجد . وكان لبعض هذه الفرق الصوفية حس سياسي قوي ومن ثم كان حماسهم في الدفاع عن الدين .. حيث هبوا في وجه الزحف الروسي على مسلمي شمال القوقاز عندما زحفت قوات الإمبراطورية الروسية نحو الشيشان وداغستان .. وكانت المقاومة هناك تتألّف من مقاتلين أشدّاء من صفوف المتصوفة (رهبان الليل وفرسان النهار) .. هكذا فهموا دينهم وهكذا مارسوه !! .. ويرجع الفضل فى ذلك إلى القيادات الواعية من أمثال الإمام منصور أُوشورما والإمام شامل .. واجه الأول جيش القيصرة كاترينا ثماية أعوام واستطاعت قواته سحق الجيش

الروسى فى معركة مشهودة على نهر سونجا سنة ١٧٨٥ .. وصمد الإمام شامل أمام الجيش الروسي خمسة وثلاثين عاما من المقاومة التاريخية الباسلة (من سنة ١٨٢٤ حتى سنة ١٨٥٩) .. [لم تكن الصوفية دائما هذه الدروشة التى نراها اليوم على الساحة] .

الأخلاق والتسامح :

يُجمع الدارسون والمراقبون الذين اختلطوا بأهل البوسنة وعاشوا معهم أن البشناق كانوا يتمتعون بمستوى أخلاقي رفيع .. فهم مؤمنون أتقياء وَرِعُون .. كتب عنهم « أوليا جلبي » بحرارة فقال : « إنهم جميعاً يخشون اللَّه .. إيمانهم صادق نقي قوي .. نفوسهم خالية من الحسد والكراهية .. وهم جميعاً ـ شباب وشيوخ أغنياء أو فقراء ـ حريصون على أداء الصلاة في أوقاتها ..

وكتب عن أخلاق البشناق وتقاليدهم كاتب سوري يقول : « البشناق معروفون بدماثة أخلاقهم والحرص على كرامتهم .. وسعة معارفهم ودقة فهمهم للأمور .. والتروي في تفكيرهم وإخلاصهم ، وأهليتهم للثقة من أبرز سجاياهم » .. والذين عرفوا رئيس جمهورية البوسنة الأسبق على عزت بيجوفيتش عن قرب يدركون هذا المعنى .. فقد كان رحمه اللَّه نموذجا رائعا من هذا الطراز الإنساني النادر ...

أمضى الرحالة الفرنسي « كيسليه » Quicelet خلال سنة ١٦٥٨م شهرين في سراييفو فكتب يقول : « لم أتلق في سراييفو إلا أحسن المعاملة والكرم السخي من جميع المسلمين في المدينة حيث كان الجميع لى أصدقاء » ..

وظلت تقارير شهود العيان الذين زاروا البوسنة وعاشوا مع أهلها في أوقات مختلفة عبر السنين تترى على نفس الوتيرة من الاستحسان .. معبّرة عن مناخ

التسامح وسعة الصدر وكرم الضيافة وغير ذلك من السمات الخلقية التي تمتّع بها أهل البوسنة حتى القرن التاسع عشر .. عندما حدثت ظروف سياسية وأوضاع اجتماعية تسببت في تغيير موقف المسلمين تجاه المسيحيين بصفة خاصة .. وسوف نرى في تاريخ البوسنة كله أن هذا التغيّر يأتي كرد فعل لكارثة تحلّ بالمسلمين من خارج أرضهم .. على شكل عدوان عسكري أو غزوات للسطو والنهب أو مذابح يتعرض لها السكان العزل على نطاق واسع ..

وهذا ما حدث في بداية القرن التاسع عشر فقد اجتاحت الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون ساحل دلماشيا وروّعت المسلمين هناك فتدفقوا نحو البوسنة والهرسك فراراً من الموت .. وقام الأرثوذكس في « صربيا » و « الجبل الأسود » بتمرّد مسلح وأوقعوا آلاف المسلمين في مذابح مروّعة فقتلوا عشرات الآلاف ، وفر الباقون إلى البوسنة .. وشعر المسلمون بأنهم محاصرون في البوسنة من كل جانب وأن خطر الحرب أصبح قريباً من ديارهم .. وأن الزحف الصليبي عليهم وشيك الوقوع ..

ومما زاد الأمور تعقيداً بالنسبة لعلاقة المسلمين بالمواطنين المسيحيين في البوسنة هو تدخل الدول الكبرى (بروسيا والنمسا وفرنسا) في الشئون الداخلية للدولة العثمانية بذريعة توفير الحماية للرعايا المسيحيين .. ومن ثم بدأ المسلمون يتشككون في سلوك المسيحيين ويتوجّسون منهم خيفة .. وأصبح الغرباء فى البوسنة بصفة عامة موضع اتهام بالتجسس لحساب الدول الخارجية ... ولكن هذا الموقف لم يترتب عليه في أي وقت من الأوقات أن قام المسلمون بإيذاء غير المسلمين أو حتى التحرش بهم .. هذا الموقف الإنساني من جانب البوسنويين المسلمين يستحق الدرس والتأمل .. !!

نجم الإمبراطورية العثمانية يهوى في البوسنة

كان البشناق دعامة وطيدة للإمبراطورية العثمانية في أوج عزها وقوتها .. فقد كانوا أكثر شعوب الإمبراطورية مشاركة في صنع هذه القوة وتدعيمها .. بالشجاعة العسكرية والحكمة السياسية وحسن الإدارة .. وقد استطاع الدكتور محمد حرب حصر أسماء ثلاثة عشر من أبناء البوسنة الذين تولوا مناصب وزراء عظام أو صدور عظام .. كما حصر ستة عشر اسماً منهم تولوا قيادة الأساطيل العثمانية .. إلى جانب العديد من المناصب الإدارية الهامة .. لا في البوسنة وحدها بل في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية الواسعة ..

هذه العلاقة الحميمة بين البشناق وبين الدولة العثمانية بدأت تتراخى شيئاً فشيئاً نتيجة لتراكم تأثير مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية . يرجع بعض هذه العوامل إلى تغييرات طرأت على النظام الداخلي للدولة العثمانية وما اعتراه من فساد .. ويرجع بعضها إلى تزايد التدخل الأجنبي للقوى العالمية الكبرى التي ظهرت على الساحة .. كما يرجع بضعها الآخر إلى التطورات التي حدثت في البوسنة نفسها وكان من نتيجتها تصاعد التوتر وبداية التمرد على السلطة ..

أدّت هذه العوامل جميعاً إلى النهاية الدرامية المحتومة بانهيار النفوذ العثماني وانقضاض القوى الخارجية على البوسنة .. وكان سقوط البوسنة في قبضة الاحتلال الأجنبي نذير شُؤم على الدولة العثمانية نفسها إذ سرعان ما تفككت وتكالب أعداؤها عليها حتى انهارت في النهاية ..

* * *

الخلاصة

بقيت البوسنة قرونا تحت الحكم العثماني كيانا سياسيا يتمتع بدرجة كبيرة من الحرية والاستقلال والازدهار ، إلى أن تمكّنت جيوش إمبراطورية النمسا والمجر بغزوها واحتلالها ، لتستمر فى صراعٍ وتدهورٍ أربعين عاما .. حتى الحرب العالمية الثانية سنة ١٩١٨ .

كانت السنوات الأولى من الاحتلال النمساوي للبوسنة شديدة الوطأة ، نزح خلالها ٣٥٠ ألف مسلم إلى تركيا ؛ قلة قليلة منهم أتراك ، والغالبية العظمى من البوسنويين ، وبقى مائتا ألف آخرون مشردون خارج ديارهم وأراضيهم .. وأصدر المحتلُّ قانونًا عسكريًّا بالتجنيد الإجباري لجميع البوسنويين الذكور ، للخدمة قهراً في جيشه ، فثارت الجماهير ضد القانون .. وسادت الاضطرابات و أعمال العنف و المقاومة ..

ولذلك تراجع النمساويون عن إلغاء قوانين الإصلاح التركية الخاصة بنظام الأراضى الزراعية تجنباً لمزيد من الثورات ، فقد شهد المؤرخ البريطاني« وليام ميلر » أن الفلاحين في البوسنة كانوا أفضل حالًا من الفلاحين في أوربا ، كما لا حظ أن تقسيم الأراضي وفقًا للقانون العثماني في الميراث (يقصد قوانين المواريث الشرعية) قد أدى إلى تفتيت الملكيات الكبيرة حتى أصبحت لا تزيد كثيراً عن ملكيات صغار الفلاحين ، وبذلك ظهرت طبقة عريضة من الملاك الصغار غيّرت من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في ريف البوسنة .. ومن ثَمَّ تضافر البسنويون من المسلمين والأرثوذوكس لأول مرة فى مقاومة الاحتلال النمساوي المجري لأنحيازه ضدّهم لصالح الأقلية الكاثوليكية ..

كان واضحا أن إمبراطورية النمسا والمجر تتبع سياسة ثابته فى تغليب كفّة الأجانب ، والكاثوليك بصفة خاصة على حساب المسلمين والأرثوذكس .. ولتأكيد هذا الاتجاه دعا النمساويون عددًا من الرهبان الألمان المقيمين في المجر ، لإنشاء مزارع نموذجية في البوسنة بلغ عددها ٤٥ مستوطنة ، سكَنَها عشرة آلاف من الكاثوليك الأجانب ، ألفان منهم من ألمانيا والباقي من بلاد أخرى في البلقان ، ومنحتهم السلطات امتيازات كبيرة .. وكانت نتيجة هذه السياسة أن تدفّق على البوسنة من هؤلاء أعداد كبيرة بلغت فى غضون ثلاثة عقود ١٠٨ ألف شخص .

وهكذا تضخم عدد الكاثوليك النازحين من هذه البلاد ، وتحوّل المجتمع الكاثوليكي في البوسنة إلى طبقة مدللة مميزة .. وبذلك وضع الاحتلال النمساوي بذور الصراع الأبدي بين الأرثوذوكس والكاثوليك الذى أدى فى النهاية إلى انهيار يوغسلافيا وتقسيم البوسنة على النحو الذى نشهده اليوم . لقد استمرت الدولة العثمانية فى الوجود خمسة قرون كان أسوِأها القرن الأخير ، الذي شهد تدهورا وانحرافا وفسادا تدريجيا في الإدارة ، وضعفا واضطرابا في السياسة الداخلية والخارجية ، انعكس خارجيا في انشقاق الولاة على الدولة واستقلالهم بشئون الولايات ؛ كما حدث في مصر في عهد محمد على باشا ، و من قبله كان الوالي العثماني مجرد شكل بلا مضمون ، حيث كان المماليك هم الحكام الفعليين لمصر. ولكن لا ينبغي أن نأخذ هذه الصورة المظلمة التي سادت في تلك الفترة الأخيرة من عمر دولة كانت في طريقها إلى الأفول ، لنعمّم الحكم على التاريخ العثماني بأكمله ، فليس صحيحاً على الإطلاق أن عصور الدولة العثمانية كلها كانت عصور ظلام وطغيان ، كما يحلو لبعض المؤرخين والكتاب أن يزعموا ..

وقد نبّه إلى هذه الحقيقة نويل مالكوم مع لفيف من المؤرخين الأوربيين المحدثين ، الذين اطّلعوا على الوثائق العثمانية ، والأوربية ووجدوا ظلما بيّنًا فيما أشيع عن الدولة العثمانية من اكاذيب ، ومن ثمّ رأوا ضرورة إعادة النظر فى هذا التاريخ بروح الإنصاف ، فقد أصبح هذا واجبا تفرضه روح البحث الموضوعي النزيه عن الحقائق التاريخية ..

ولم يقتصر جهد هؤلاء المؤرخين على مجرد الدعوة لإعادة النظر فى التاريخ العثماني ، فقد بدأوا هم بأنفسهم ، فأعادوا صياغة هذا التاريخ من واقع الوثائق والمصادر الأولية التى اطّلعوا عليها وحقّقوها ، وجاءت كتاباتهم انعكاسا مخلصا لجهودهم فى تحرى الحقائق .. ولولا أمثال هؤلاء ما تسنّى لى أن أكتب هذه الرسالة « سمات من عبقرية الحضارة الإسلامية » فى أضعف مراحلها التاريخية ، واعيا بأننى أسبح ضد تيار هائل من الكتابات التاريخية فى بلادنا ، تتسم بعدم الإنصاف ويغلب على أصحابها تعصبات أيديولوجية وأفكار مسبّقة ، تنأى بها عن الحقائق الموضوعية .

۞ ۞ ۞ ۞



أهم المصادر والمراجع

1- *Arnold T.W The Preaching of Islam: A History of the Propagation of the Muslim Faith. London: Darf Publishers, 1986.*

2- *Asboth, J. de. An Official Tour through Bosnia and Herzegovina. Swan Sonnenschein & Company 1890.*

3- *Donia, R. Islam under the Double Eagle: The Muslims of Bosnia and Herzegovina 1878-1914. Boulder, Colorado, 1981.*

4- *Fine, J.V.A. Late Medieval Balkans: A Critical Survey from the Late Twelfth Century to the Ottoman Conquest. An Arbor, Michigan, 1987.*

5- *Friedman, Francine. The Bosnian Muslims: Denial of a Nation. Boulder, Colorado: Westview Press, 1996.*

6- *Glenny, Misha: The Fall of Yugoslavia... London: Penguin Books, 1992.*

7- *Grmek, M etal. Le Nettayage ethnique: documents historiques swr une ideologie serle (Paris, 1993).*

8- *Mass, Peter. Love Thy Neighbor: A Story of War. London: Macmillan, 1996.*

9- *Malcolm, Noel. Bosnia: A Short History. London: Macmillan, 1994.*

10- *Malcolm, Noel. Kosovo: A Short History. London: Macmillan, 1998.*

11- *Miller, W. Travels and Politics in The Near East. London, 1898.*

12- *McGowan., B. Food Supply and Taxation...Archivium Ottomananicum, vol. 1 (1969).*

13- *Motafcieva, V. Agrarian Relation in the Ottoman Empire in the 16th Century. Boulder. Colorado: 1988.*

14- *Norris, Harry. Islam In the Balkans. London: Hurst, 1993.*

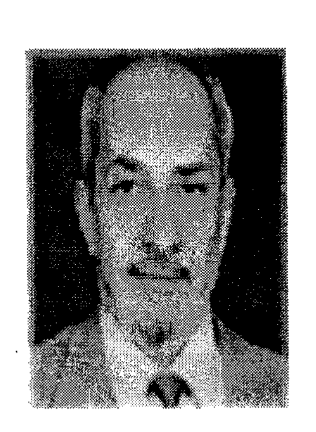
15- *Pulton, H. The Balkans: Minorities and States in Conflict. London, 1991.*

16- *Treasure, Geoffrey. The Making of Modern Europe (1648-1780). London: Methuen, 1985.*

١٧- محمد حرب . البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة. القاهرة: المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى والبلقان (جامعة عين شمس) ، ١٩٩٤ .

* * *

السِّيرَةُ الذَّاتِيَّة لِلمُؤَلِّف



- هو الأستاذ محمد يوسف عدس ، مُفكِّر وكاتب موسوعي ، جَمَع بين الفلسفة والمكتبات والمعلومات والاقتصاد الإسلاميّ وتاريخ الأقليات الإسلامية في العالم .

- ولد بقرية بُهُوت بالدقهلية (مصر) عام ١٩٣٤ ، ولهذه القرية تاريخ في الثورة على الإقطاع .

- تعلَّم في بُهُوت والزقازيق والمنصورة ، وتخرّج في قسم الفلسفة بآداب القاهرة عام ١٩٥٧ .

- كان من أوائل من عملوا أمناء مُتخصِّصين للمكتبات المدرسية وبدأ عمله عام ١٩٥٨ بطوخ الثانوية وكان رائدًا لحركة ثقافية مُهِمَّة في هذا المجتمع في الستينيَّات .

- قام بعمل دراسات عليا في علم المكتبات والمعلومات والاقتصاد وإدارة المؤسسات ، في إستراليا بجامعة « كمبرا » من ١٩٧٥ - ١٩٧٨م

- عمل مديرًا للمركز الثقافيّ المصريّ في الفلبين من ١٩٦٤ - ١٩٦٥م ، ثم موجِّهًا للمكتبات المدرسية في محافظة القليوبية ، وأنشأ أول مكتبة سمعية في مصر وعدّة مكتبات للأطفال ، واهتم بالدراسة التحليلية لأدب الأطفال .

- هاجر إلى إستراليا عام ١٩٧١م ، وعمل خبيرا بالمكتبات في جامعة بندجو بفكتوريا من ١٩٧١ - ١٩٧٤ ، وبالمكتبة القومية الاسترالية ، وأسهم في إصدار الببليوجرافيا الوطنية الإسترالية .

- انتقل إلى قطر عام ١٩٨٠ خبيرًا لمنظمة اليونسكو لإنشاء مكتبات جامعة قطر ،

وأَدْخَل بها خدمات قواعد المعلومات (قبل ظُهور الإنترنت) .

ـ شارك في مؤتمرات وندوات في العديد من الدول العربية والأجنبية منها : مصر والسعودية وقطر والكويت والبحرين وتونس والمغرب وإستراليا وبريطانيا .

ـ له العديد من الدراسات في علم المكتبات وتكنولوجيا المعلومات ، وله تَقَارير مَيدانية عن المكتبات في سلطنة عمان واليمن (الجنوبية) والأردن ومصر .

ـ عاد إلى مصر في ١٩٩٥م وتفرّغ للبحث والكتابة عن قضايا الاقتصاد الإسلاميّ والأقليات المسْلِمة في العالم والظلم الإمبريالي للشعوب الفقيرة في العالم الثالث ، وكَشَفَ الأَقنعة عن منظمات دولية تتستر خلف شعارات التنمية ، مثل البنك الدوليّ ، وصندوق النقد الدوليّ ، ومنظمة التجارة العالمية ، وكشف عن التطهير العِرْقِيّ في البوسنة ، وكوسوفا ، ومشكلات المسلمين في مقدونيا والفلبين والشيشان وآسيا الوسطى ، وله دراسة مبكرة عن مُسْلمي الفلبين وتاريخهم ومشكلاتهم ، بعنوان « الفلبين » ط. دار المعارف ، ١٩٦٩م .

ـ تَرْجم أعمالاً عالمية إلى العربية ، ومن أهمها : « الإسلام بين الشرق والغرب » و « الإعلان الإسلاميّ » ، وكلاهما لعليّ عزت بيجوفيتش ، و« مختارات من الأدب الفلبيني » وغيرها مما يُترجَم لأول مرة .

ـ كَتَب عن شخصيات مؤثرة في العالم إيجابًا وسلبًا ، منها : عليّ عزت بيجوفيتش ، جورج جالاوي ، ديك تشيني .

ـ بَلَغت كُتبه المؤلفة والمترجمة أكثر من ١٢ كتابًا ، وعشرات المقالات والأبحاث المنشورة في الصحف والمجلات العربية .

* * *

The Ottoman Empire

in Europe

By

Mohamed Yusuf Ades

Introduction By

Professor Adel Hassan Ghoneym

Al- Imam Al- Bokhary

Publishrs


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





هذا الكتاب

دراسة عن سمات العبقرية في الحضارة الإسلامية تحت إطار البلقان تحت الحكم العثماني .

عبّر فيها المؤلف بنماذج مختلفة لم يخترها من فترات الازدهار والتوهّج وإنما اختارها من عصور فُقدت فيها روح اللغة العربية حيث انتقلت السلطة الإسلامية إلى الأناضول على يد العثمانيين الذين يتحدثون اللغة التركية ولا يجيدون اللغة العربية ، لكنهم رغم ذلك استطاعوا أن يتمثلوا الحضارة الإسلامية بقيمها العظيمة ويقيموا مجتمعات تتمتع بالحرية والازدهار والعدل .

وبين فيها تَكالب أوروبا كلها ضد العثمانيين عسكرياً وسياسياً وثقافياً .. وتسويدها لآلاف الصفحات بالافتراءات والأكاذيب عليهم .. وكان الصرب أشدهم عداوة وأكثرهم افتراءً وكذباً ...

مفنداً كل ما ساقوه من حجج وأباطيل ، معتمدا في دراسته على كتابات بعض المؤرّخين المُنْصِفين « توماس أرنولد ، ونويل مالكوم ، وهارى ثيرلُويل نوريس » ، وعلى الوثائق التي نشروها ..

والله الموفق .



القاهرة : الأزهر - ٧ حارة الصوافرة أمام جامع الأزهر
تليفون و فاكس: ٢٥٩٢٠٠٧٨ (٢٠٢+) FB/Emambokhary.com
جوال: ٠١٢٢٢٦٧٦٧٩٧ Email : Info@Emambokhary.com
www.Emambokhary.com